محمد عبد المنعم خفاجي

الإسلام دين الإنسانية

الطبعة الأولى

يطلب من
مكتبة القاهرة
لصاحبها، علي يوسف سليمان
شارع الصنادقية . بميدان الأزهر بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

يقف الإسلام اليوم أمام تيارات عالمية عاتية ، من سياسية ومذهبية وعقائدية وفكرية واجتماعية وعنصرية . كلها تحاول إقصاءه عن المجتمعات والناس .. ولكنه ينظر بعين الإشفاق والرحمة والرثاء إلى هؤلاء المخدوعين والضالين والمضلين ، يريد لهم أن يجتمعوا على الطريق السوى وأن يسيروا إلى السبيل اللاحب ، وأن يعملوا للحق وبالحق ولأجل الحق وحده .

وكلما مضت الأيام كلما تبينا الحاجة إلى أن يسود الإسلام مجتمعات اليوم لينقذها مما هى فيه من فساد وانحلال وضياع وحرمان . إنه دين الإنسانية ، ودين القيمة ، الدين الخالد العام الصالح لكل زمان ومكان .

وفى هذه الفصول والبحوث درسنا كثيراً من أصول الإسلام وحقائقه ، وكشفنا عن جوهره الثمين ، وأبنا زيف كثير من الضلالات المعاصرة المنحرفة ، وقومناها تقويما يبين عن روحها واتجاهاتها وأهدافها .

إننا فى هذه الدراسات نضع الحق فى نصابه ، ونجلو للشباب الإسلامى كل ما جهلوه عن دينهم العظيم الخالد من قيم وأفكار ومبادىء وأصول .

وبالله التوفيق . ومنه السداد ، وإليه نضرع أن يكتب للاسلام والمسلمين وللعرب والعروبة العزة والمجد والرفاهية ، وما توفيقنا إلا بالله ؟

هذا هو الاسلام

— ١ —

الإسلام ديننا الخالد العظيم ، ورسالة السماء إلى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، والشريعة التى نزل بها كتاب كريم ، هو القرآن دستورها وناموسها الأكبر .

وهو الدين الذى نزل هدى ورحمة للعالمين ، وأحدث تطبيقه لأول مرة فى مكة ثم المدينة ثم فى جزيرة العرب نفسها على يد الرسول الأطهر ثورة لم تشهدها الإنسانية من قبل ولا من بعد ، وإصلاحا لم يكن يحلم به بشر ، ولا زلنا حتى اليوم لا نستطيع أن نصل إلى مداه الكبير . . ثم استمر فى مده العظيم ، فطبقه الخلفاء الراشدون فى البلاد التى دخلت فى ظلال الإسلام ، وانضوى تحت لوائه الملايين فى الشمال والجنوب والشرق والغرب فرحين مهللين مكبرين . مستبشرين بعهد من الحرية والإخاء والتعاون والعدالة والمساواة والرفاهية لبنى البشر جميعا ، وعاملين على تأثيل حضارة ومدنية جديدة لم تشهدها البشرية من قبل .

دين جارى التطور فى كل زمان ومكان ، وجابه الطغيان وانتصر عليه فى كل بيئة وعصر ، ولم تقف أمامه مشكلة من المشكلات ولم يزعم منصف فى أى جيل أن منطق الإسلام لايجارى العقل

والحياة ، ولم يستطع أصحاب الدعوات الجديدة أن يزعموا أن دعواتهم على ماهيء لها أحيانا من دعاية ومساندة النفوذ أو الجاه أو المال قد نالت بعض ما ناله الإسلام فى سنوات معدودات من ثقة الجماهير وإيمانها به وإقبالها على اعتناقه والدخول فيه .

دين لا زالت أصوله ودعواته حلم البشرية بعد ما وصلت إليه من تطور وتقدم وحضارة ، ولا زالت أسسه الفكرية والروحية تحمل إلى العالم الأمن والسلام والرخاء ، وهو بعد جديد . فى كل وقت ، عظيم فى كل حين ، جليل فى كل عين ، رفيع فى كل عقل .

دين وضع أصولا خالدة لإصلاح جميع مجالات الحياة ، ونواحى النشاط الإنسانى ، وسبق « الديكارتيين » إلى تقديم الشك أمام كل بحث وترك التقليد ، وإلى الإيمان بما يؤدى إليه الدليل ؛ كما سبق « بيكون » إلى المذهب العلمى ، وسبق فلاسفة الاجتماع إلى وضع أصوله ولم يجعل للمعرفة الإنسانية حـــدا ، من حيث وضع بعض المفكرين الغربيين حدا لما يمكن أن يصل إليه الإنسان من معارف وأقام مبادئه ، على سمو الغاية الأدبية فحسب ، دون النظر إلى التعليلات الاقتصادية والمادية للأشياء ؛ ووحد بين الأجناس والعناصر والألوان ، ودعا إلى أخوة بشرية عامة لا تفاضل فيها لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وجمع الكثير من الأمم والشعوب تحت ظلاله ، بما عجز عن تحقيقه كل القواد والدول . هذا مع العدالة فى الحكم ، ومع الإيمان بالحرية والشورى والإخاء

والمساواة وتطبيقها . . ومع العمل على نشر الأمن والرفاهية والوئام والسلام بين بنى البشر جميعا .

— ٢ —

لم يقف الإسلام وأصوله ومبادئه الكريمة حائرا أمام أية مشكلة من مشكلات الحياة فى كل عصر وكل بيئة ، بل وجد الحلول العادلة لكل ماجد وما يجد على سطح الأرض من جديد .

كانت رسالته دائما التبشير بقيم إنسانية رفيعة ، لم يقل أبدا وفى أحرج الأزمات والمحن : إن الغاية تبرر الوسيلة . . . لم يزعم الإسلام أنه وصى على البشر وأنه مستعمر فى الأرض ، بل دعا دائما إلى الإيمان بأصوله كحل أساسى لجميع مشكلات المضطهدين والمستعبدين والذين وقف بهم التأخر عن متابعة سير الحياة . . نادى بالحرية لكل الناس ولكل الشعوب ، دعا إلى أن تتولى كل أمة أمور نفسها فى ظلال مبادئه ودعواته وأصوله . . قاوم من وقف فى سبيل دعوته لأن من يفعل ذلك فهو يقف فى وجه الحياة نفسها ليؤخر سير الزمن .

حل جميع العصبيات وأبطلها ، وكل المشكلات وأزالها ، وجميع العقد النفسية والروحية عند جميع الناس . ووضع مكانها حب الخير والتعاون والرحمة وحب الوئام والسلام والبر والشفقة ، وهذب العواطف والمشاعر الانسانية وطهرها وسما بها . . وجعل الحياة أمام

الناس ، وجعلها تعاونا ومشاركة وتبادلا المنافع والخيرات ، ومد في آفاق الأمل فيها بما دعا إليه من السعى فى مناكبها ، ومن الصبر على لأوائها ، ومن الثقة برحمة الله وفضله وفرجه . .

قابل الإسلام آلاف الدعوات والمبادىء والأفكار الجديدة ومع ذلك لم تستطع إحداها أن تجاريه فى حيويته وبساطته ومثاليته وعظمة مبادئه وأصوله . . وواجه آلاف الطغاة ومع ذلك لم يستطع واحد منهم أن يوقف سيره المحتوم أو يعطل رسالته النيرة ، أو ينتصر على مبادىء الإسلام الجليلة العظيمة .

وحملت شعوب الإسلام دائما إلى العالم وإلى الحياة فى كل العصور والأجيال ، وبفضل دينهم العظيم ، رسالة التقدم والحضارة ، رسالة الحرية والعدالة ، رسالة المحبة والسلام والإخاء والشورى والتعاون بين الناس جميعا .

ودخل الناس فى دين الله أفواجا فى كل عصر وجيل وفى كل زمان ومكان . .

قد نقول إن المسلمين فى العصور الأخيرة قد أخذ منهم الغرب زمام قيادة العالم ، وحاربهم فى دينهم وأموالهم وأعراضهم حربا شديدة ، واعترتهم فترة من النوم والجمود والجهل . . ولكن ذلك كله لم يكن بسبب دينهم ، بل بسبب انصرافهم عن تعاليمه ، ومجاراتهم للغرب وحضارته فى كل شىء ، وخصوماتهم بعضهم لبعض . ولأسباب

أخرى لاتخفى على أحد اليوم .. والشىء الوحيد الذى يمكن أن يعيد القوة والسيادة إلى أمم الإسلام هو عودتهم إلى دينهم ، ورجوعهم إلى حضارتهم وتاريخهم وتراثهم : وإقبالهم على تربية أبنائهم تربية إسلامية صحيحة . .

والآن ما هى رسالة الإسلام فى عالم اليوم ؟

تتلخص أصول الإسلام فى العقيدة الإسلامية ، وفى المبادىء الإساسية للمجتمع الإسلامى ، وفى نظام العبادة للمسلم ، وفى الأسس التى ينبنى عليها كيان الأمة الإسـلامية . . وفى أفكار الإسلام الأساسية فى خدمة الحياة نفسها :

فمن حيث العقيدة فهى عقيدة إنسانية تؤمن بالله ورسالة محمد وبرسل محمد الله جميعا ولا تفرق بين أحد منهم .

ومن حيث نظام العبادة للفرد المسلم فهو يتلخص فى الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج . . إلى وجوب اعتناقه للفضائل الإنسانية الأخرى من صدق ووفاء ورحمة وشفقة وإيثار وبر وأمانة . . . الخ .

ومن حيث مبادىء المجتمع الأساسية فى الإسلام فهى تقوم على :

١ — الشعور بالمسئولية ٢ — التعاون التام

٣ — العدالة الكاملة والتزامها

٤ — المساواة بين جميع أفراد المجتمع فى الحقوق والواجبات
٥ — الحرية لكل الناس والطبقات ٦ — نشر الرخاء بين جميع الناس ٧ — توفير العمل وجعله حقا لكل أحد
٨ — كفالة الدولة لجميع مرافق الحياة وإيصالها لكل الناس بالمجان مادام ذلك ممكنا ٩ — مساعدة الدولة لكل محتاج بقدر مايسد حاجته دون ما تأخير ١٠ — السهر على خدمة المجتمع وخدمة الأمن بكل وسيلة ١١ — محاربة كل ألوان الفساد الاجتماعى والرذائل الاجتماعية والخلقية والقضاء عليها .. إلى غير ذلك من مبادىء ليس هنا مكان شرحها .

ومن حيث الأسس التى ينبنى عليها كيان الأمة الإسلامية فتتلخص فى الشورى ـ السلام بين طبقات الأمة ـ العدالة الاجتماعية والتكافل الاجتماعى ـ القضاء على الامتيازات الفردية والاجتماعية إلا مايرجع إلى العمل وخدمة الأمة ـ نشر التعليم وجعله حقا لكل فرد ـ إلى آخره .

أما أفكار الإسلام فى خدمة الحياة فهى ترجع إلى مبادئه فى تحرير الأرقاء والمستعبدين والمستضعفين وفى نشر السلام ، وفى تبادل التجارة بين أمم الأرض ، وفى نشر الثقافة والحضارة ومساعدة الأمم المتخلفة ، وفى الانتصار لكل ضعيف ومظلوم ، وفى العمل على تقدم الحياة وإثرائها بكل جديد نافع ، ومبتكر صالح الخ

ورسالة الإسلام فى عالم اليوم تستمد من جوهره وحقيقة مبادئه العامة ، وفى الإمكان إجمالها فيما يلى :

١ — نشر الروحية فى عالم اليوم الذى تغلبت عليه المادية ، وحكمته فلسفاتها الجائرة .

٢ — الدعوة إلى الأخوة الإنسانية فى عالم اليوم الملىء بالأحقاد وبالأسباب التى تهدد السلام العالمى فى كل لحظة .

٣ — الدعوة إلى تحرير العناصر والشعوب المستعبدة لأن ذلك من جوهر الإسلام وطبيعته .

٤ — العمل من أجل ثقافة جديدة مثالية .

٥ — نشر أعمال المفكرين المسلمين ، ومبادىء الإسلام ، وبطولات أبطاله وقواده ، ومواقف زعمائه وقادته ، بكل لغة لتكون نبراسا للناس يستهدون بها ، ويسترشدون بسموها .

٦ — الكشف عن أصول الحضارة الإسلامية وأعمالها فى خدمة العالم ونشر ملخصات عنها بكل لغة .

٧ — إنشاء معاهد ثقافية إسلامية فى جميع أنحاء العالم لنشر الثقافة العربية الإسلامية .

٨ — كتابة التاريخ الإسلامى فى موسوعة عربية بأسلوب جديد يتفق مع تطور الحياة والفكر العالمى المعاصر .

٩ — نشر مفاخر الإسلام فى خدمة الشعوب التى استظلت بظله ، وفى النهوض بها ، وكل ما أسداه إليها الحكم الإسلامى من نهضة وتقدم وحضارة ورقى .

١٠ — الدعوة إلى مبادىء الإسلام الاساسية فى الحرية والشورى والمساواة والتكافل الاجتماعى والإخاء والعدالة ، وغير ذلك .

هذا قل من كثر مما يجب عمله ، ومما يستطيع الإسلام خدمة الحياة والحضارة والعالم فى مجاله . . وما ذلك على الله ولا على الإسلام وشعوبه بعزيز ؟

الإسلام أولا

١ — لايزال كثير من المسلمين المعاصرين يفهمون الإسلام بالتقليد، ويؤمنون بأصوله وأركانه بالوراثة، ويأخذون أحكامه وآدابه بالتناقل . . . دون أن يرجعوا إلى العقل وأحداث الزمن الحاضرة فى فهمه، وتدبر غاياته وأهدافه، وكثيراً مايثرثرون بما لا يفهمون، ويهرفون بما لا يعرفون، ويقولون مالا يتدبرون. والعجب العاجب أن تسمع من بعضهم أن الاجتماع على الفضائل الإنسانية، والمثل والقيم النبيلة، يكفى فى الإسلام وفى كل دين، دون دخول فى الإسلام، وإيمان بالدين وتصديق برسالة محمد صلوات الله عليه.

وليس أغرب من هذا الفهم فى عرف العقل، ولا فى رأى الدين نفسه، وكأنى بهؤلاء يقولون إن: «وحدة الصف» هى الغاية وعليها المعول وفيها الكفاية. وحسبهم أن يجتمع الناس على الخير، ويؤمنوا بالفضيلة، ويصدقوا بوجود الله، فنى ذلك كل الغنى وفيه الفوز برضاء الله ونعيمه الأبدى ولقد اجتمع كثير من الدعاة المضللين على الدعاية لفكرة توحيد الأديان، لغرض فى نفوسهم، ومرض فى قلوبهم، فهذا التوحيدلن تؤمن به اليهودية ولا المسيحية، ولايؤمن به الإسلام نفسه مادام أساسه أخذ بعض الدين وترك بعضه، وما أصدق مايقول الله عز وجل فى كتابه الحكيم: «إن الذين يكفرون بالله ورسله، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر

ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً » (١) .

إن ذلك كله خطأ ما بعده خطأ فى حكم العقل وحكم الدين أيضا ، فالإسلام لايدعو إلى وحدة الصف وإنما يدعو إلى وحدة الهـــدف فليكن الإنسان مؤمناً أولا بالدين ، فهذا الإيمان أساسى وضرورى لتحقيق وجود الإنسان الروحى والفكرى والأدبى أولا ، ثم بعد ذلك عليه أن يلتزم آداب الدين وأركانه وشعائره ، ويعمل بها ليحقق الغاية من الإيمان ومن الدين ، وفى ذلك يقول الله عز وجل : « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » (٢) . ويقول وما أصدق ما يقول : « ياأيها الذين آمنوا ، آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله ، والكتاب الذى أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً » (٣) .

إن التوحيد فى الأديان أو بينها هو مانص عليه القرآن الكريم فى قوله عزوجل : « قل آمنا بالله ، وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لانفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » (٤) .

وبهذا تتحقق وحدة الهـــدف بين أتباع الدين ، أما أن يجتمع

---

(١) النساء : ١٥٠ ، ١٥١ (٢) النساء : ١٢٤
(٣) النساء : ١٣٦ . (٤) آل عمران : ٨٤

الناس كافة على بعض أصول الدين دون بعض ، تحقيقا لفكرة وحدة الصف ، فهذا خطأ فى التفكير والفهم ، وقد كان لنا من عبر الحاضر ما يذكرنا بحقائق الدين وحكمة تشريعاته وأصوله ، فقدكنا ندعو إلى وحدة الصف ، ثم عدنا ندعو إلى وحدة الهدف أولا بعد أن تبين لنا أن وحدة الصف لا تكسبنا ولا تكسب دعوة العروبة والقوميـــة والوحدة خيرا ... فهل يلام الإسلام إذا ما دعا أولا إلى وحدة الهدف ، فطالب الناس بالدخول فى الإسلام أولا ، ثم طالبهم بعد ذلك بأعمال الإسلام وتشريعاته وآدابه وأحكامه ؟ .

٢ — إن الدين والإيمان بالله أولا هو الحد الفاصل بين روح الإنسان وبين غرائز الحيوان : بين المدنية والوحشية ، بين العقل والجهل ، بين النور والظلام .

والإيمان بالوحى والرسالات السماوية أمر حتمى ، لأنها خيوط الفجر فى ظلمات الحياة ، ومبادىء الحق والخير والعدل والحرية فى ضلالات الباطل والشر والظلم والطغيان ، ولأن الرسل الذين اصطفاهم الله لرسالاته هم دعاة المثل والقيم الإنسانية الرفيعة وحاملوا لواء المدنية والحضارة والهداية فى الأرض .

والإيمان برسالة الإسلام إيمان بالتطور والتجديد وبالكمال الروحى والنفسى وبالفضائل والمبادىء الشريفة ، وبالحياة نفسها ومثالياتها العالية . . . وما محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أعظم الدعاة إلى أعظم المبادىء وأكرمها وأشرفها عند الله والناس ، وهو الذى قاد

الحياة إلى عصر جديد ، وشرع لها من المبادىء والأصول ما أعزها وسما بها إلى غايات رفيعة من السلام والخير والهدى والإيثار والمحبة ومرضاة الله والناس ، ونقلها إلى حياة النور والمدنية والعدالة والإخاء والمساواة ، وعلمها أن الدين هو الحياة الشريفة وهو موجه الحياة إلى أشرف المبادىء والأهداف ، وقائدها إلى أسمى الغايات وأنبل الاتجاهات والمساعى .

والعمل الصالح ، والتزام الفضائل ، وإيثار العدل ، وحب الحرية ، والإيمان بالمساواة والإخاء ، وبالإيثار ، والعمل لخير المجتمع ؛ هو تحقيق لمدلول الدين نفسه وعمل بمبادئه ، وتطبيق لأحكامه . . .

وذلك كله تحقيق لوحدة الهدف قبل كل شىء ؛ دون نظر إلى وحدة الصف ، التى تعنى جمع الأنصار والأتباع ، دون أن يشملهم جميعا السلام الروحى ، ودون أن يجتمعوا كلهم على هدف واحد وغاية واحدة وسبيل واحد .

٣ — وحدة الهدف أولا مبدأ من مبادىء الإسلام الأولى ، عناه الدين وألزم به أتباعه ، وطبقه فى كل أموره ودعوته .

ولست مع من يرى أن بعض الأعمال يمكن أن تقدم على الإيمان بالدين نفسه ، كائنة ما كانت هذه الأعمال ، وبالغة مابلغت من السمو والرفعة والشرف . .

وفى « التفسير البيانى » للدكتورة الكبيرة بنت الشاطىء — وهو

تفسير جديد قيم يسير على مناهج علمية ثابتة - عند تفسير قوله تعالى من سورة البلد : « فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة . أو إطعام في يوم ذى مسغبة . يتيما ذا مقربة . أو مسكينا ذا متربة . ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة » . ترى الدكتورة الأخذ بصريح الترتيب فى الآيات ، وتقول مانصه : (يبين القرآن مراحل اقتحام العقبة ، فيضع كرامة الإنسان بالعتق والعدالة الاجتماعية بإطعام فقير أو مسكين ، خطوتين سابقتين على الإيمان ، مقرراً ألا سبيل إلى رجاء الإيمان فيمن غره جاهه فاسترق مخلوقاً مثله ، وتحجر قلبه فلم يطعم فى المجاعة يتيما أو مسكينا ، معلنا ألا مكان لإيمان صادق مخلص فى مجتمع يستبيح إهدار البشرية ، ويطيق أن يمسك الطعام فى يوم مجاعة عن يتيم ذى قربى أو مسكين معدم ، لا يجد إلا التراب [1]) .

ومعنى ذلك أن الإيمان فى المرتبة الثانية لا الأولى ، ودائما نقول : إنه لا يستطيع المحافظة على حقوقه إلا مؤمن بها ، وأن الإيمان أولا ، وكل شىء يجىء فى المرتبة التالية له ، فوحدة الهدف أولا .. والإيمان فى يد الرقيق وثيقة الحرية ، وفى يد الفقير والمسكين وثيقة العدالة الاجتماعية ، وما جدوى تحرير الرقيق إذا لم يكن يملك الإيمان به ، ولا يملك الوثيقة التى أعلنت تحريره وماجدوى عدالة اجتماعية ، إذا لم

---

(١) ص ١٢٠ التفسير البيانى

تكن هذه العدالة جزءا من الدين والإيمان ، وشعيرة من شعائرهما ، وحقا واجبا للفقير أو المسكين واليتيم الإيمان أولا ؛ لأن الإيمان هو الحرية والوسيلة إلى الكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية . فالقرآن الكريم جعل كل هذا من اقتحام العقبة وتحمل المسئولية ، والإنسان مطالب بها جميعها ، وقدم القرآن فك الرقبة والإطعام للاهتمام بهما فى مجتمع جاهلى خوطب بالقرآن ثم رفع من منزلة الإيمان بالتعبير بثم ؛ لأن الإيمان إذا وجد وجد كل عمل صالح وخلق كريم .

والأمر كله أن القرآن والإسلام يعتبران وحدة الهدف أولا : فكل الطاعات والأعمال الصالحات لا تجىء عبادة مقصودة يتقرب بها إلى الله إلا بعد وجود الأساس الذى تبنى عليه هذه الطاعات ، وهو الإيمان ، وبدونه تكون هذه الأعمال أعمالا إنسانية نبيلة ليس المقصود بها طاعة الله بل إرضاء نزعات أخرى ، وهى لا ترفع مسئولية الإنسان عن وجوب الإيمان بالله ورسالته ولا تبعد عنه عذابه وغضبه فى اليوم الآخر وليست مرضاة الله فى الآخرة إلا عن المؤمنين المصدقين ثم الطائعين . . وفى هذا يقول الله عز وجل : « قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون » . . . إلى أن قال عز وجل : « أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » .

إن وحدة الهدف مبدأ ظاهر واضح فى تعاليم الإسلام وشعائره

وأصوله . . فهى تلى فى المنزلة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وبخاتم الرسل وبرسالته الكريمة الخالدة .

٤ — ووفق ناموس التدرج والارتقاء لابد أن تأوى الإنسانية إلى هذه الشريعة السمحة الكريمة ، ولا بد أن ترد إلى أصولها العامة ، ومبادئها الشريفة ، التى وسعت الناس جميعا والتى ساوت بينهم فى الحقوق والواجبات وأعلنت مبادىء الحرية والإخاء بين البشر كافة ، وشرعت شرائع الشورى والديمقراطية والعدالة والحق ، والتكافل الاجتماعى ، وجعلت الناس إخوة ، ونادت بوحدة إسلامية تسع المسلمين جميعا ، وهى التى تنادى بها اليوم فى وحدة عربية ، فهى وحدة عربية إسلامية مصغرة ، كما نادت بوحدة إنسانية عامة ، يشترك المسلمون وأتباع الديانات السماوية الأخرى فيها فى المحافظة على السلام وعلى القيم الانسانية ، وعلى بناء الحضارة ، وعلى أصول المدنية والمسئولية الأدبية بين العبد وربه . فالوحدة الأولى هى وحدة فى الهدف ، وهى مقدمة على كل شىء والوحدة الثانية هى وحدة فى الصف ، وهى لا تقوم إلا إذا وجدت الأولى ، وهى ضرورية للتوازن العالمى ولسيادة السلام فى الأرض ولتبادل التجارة والمنافع بين البشر جميعا . يقول الاستاذ الدكتور محمود حب الله الأمين العام لمجمع البحوث الاسلامية بالأزهر من محاضرة له فى قاعة الامام محمد عبده (١) ما نصه : « إذا كان المسلمون قد انحدروا من أجناس وأنساب شتى ، وجاءوا إلى

---

(١) راجع مجلة الأزهر عدد رجب ١٣٨٢ هـ ص ٥٩٣ وما بعدها « الإسلام والعالم » .

الاسلام من ثقافات وحضارات شتى ، ولهم لغات ولهجات متباينة فانه لحق كذلك أن الإسلام قد جمـــع بينهم ، والإسلام عقيدة وشريعة ، مبادىء ومثل وطريق للسلوك فى الحياة ، للسلوك فى شتى أنواعه ومظاهره ، فغرس لذلك بين الأمم والشعوب التى اعتنقته عادات وتقاليد متشابهة فى الحياة ، وحد بها بين اتجاهات المسلمين فى تصرفاتهم وطرائق سلوكهم فى الحياة ، ولم يوحد الإسلام بين المسلمين فى كلمة التوحيد فحسب ، بل وحد بينهم كذلك فى قواعد السلوك وفى أساليب السلوك فى الحياة ، فأصبحت عاداتهم متقاربة متشابهة ، فالوحدة بين المسلمين وحدة حقيقية ؛ لأنها وحدة فى الإيمان ، وحدة فى المثل وفى الأهداف ، وحدة فى الشعور ، ووحدة فى السلوك والأخلاق ، وفى التقاليد والعادات » .

٥ — إن الإسلام يقف اليوم فى مركز الثقل فى العالم ، يحفظ للإنسانية روحها ، ويجدد للحضارة بناءها ، ويبنى للحياة قيمها ومثلها ، تفر من أمامه نزعات الإلحاد والمادية وتحاول أن تطغى عليه نزعات الفساد والتحلل فلا تلبث أن تجد العود الصلب ، والحق الثابت ، والقوة الفتية ، والشباب المتجدد ، والمثاليات الإنسانية الكريمة ، فتخشع وتطأطىء الرأس صاغرة ذليلة .

الإسلام هو الحياة المتوثبة ، والشعائر الكريمة الحية المتجددة ، هو كل قوة وكل خير وكل عدل ورحمة فى الأرض : « إنه لاعيب فيه ، ولا ينقصه شىء من مقومات الحضارة ، بل هو الموجد لأعلى أنواع الحضارات ؛ فإذا كانت هناك عيوب ، وإذا كان هناك تخلف ،

فهو نتيجة لتفكيرنا ، ولعملنا نحن المسلمين ، وليس نتيجة للإسلام » (١) .

ولا يعنى ذلك أن ندخل فى الإسلام تقاليد المسلمين المتأخرة ، وجمودهم الذى صاروا إليه ، ولا أن نحاسبه على أعمالنا نحن ، وعلى ركوع البعض منا أمام القوة والجبروت والسلطان ؛ بل إن الإسلام هو التحرر والانطلاق والحق والإنصاف ، وهو السمو النفسى والروحى فى كل نواحيه ، وهو كل دعوة كريمة فى الحياة .

وليت شعرى متى يفهم المسلمون رسالتهم فى الحياة حق فهمها ؟ ومتى يؤمنون بالإيثار لا الأثرة ، وبالحق لا بالباطل ، وبالعدل لا بالجور ، وبكل قيم الحياة ومثالياتها الرفيعة ؟ اللهم إنك ربى ، وأنت القادر على تغيير الطباع ، وتصحيح الأوضاع ، وعلى أن يعود مسلمو اليوم كما كانوا بالأمس ، مثلا رفيعة ، وأمثلة حية لمبادىء الإسلام وآدابه وأصوله .

اللهم أنت الذى أنزلت رسالتك ، وأنت الذى وعدت بحفظها فى الأرض لتبقى فيها ما بقيت الحياة ، تبعث الإيمان والخير والفداء والتضحية والبطولة والشجاعة والنبل والشمم والخير بين الناس . فاكتب الدين وأهله العزة والسيادة والمنعة والقوة والظفر ، حتى تبقى الراية مرفوعة ، واللواء خفاقا ، والعلم مرفرفا ؛ يجتمع عليه الناس كلما فرقتهم الحياة ، وأغرتهم الدنيا ، ووسوست إليهم المادية ودعاتها المبطلون ؟

(١) المرجع السابق نفسه .

عظمة الرسول

١ — وصف الله عز وجل فى كتابه الحكيم نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بعظمة الخلق ، فقال تعالى : « وإنك لعلى خلق عظيم » ، فهل يصح لنا أن نصف الرسول الأكرم بالعظمة ؟ العظمة بمعناها المتبادر الذى هو التميز والرفعة وعلو المنزلة ، أو بمعناها المقصود ، الذى هو ذيوع الشهرة ، وخلود الذكر ، وهو لازم للمعنى الأول ومقصود منه .. لا بمعنى الكبرياء والصلف فإنه ليس بمراد لى ولا لأحد فى مثل هذا المقام .

هل يجوز ذلك ، كما أجاز بعض المعاصرين وصفه بالعبقرية فى اعتقادى ـ وإن كان وصفه صلى الله عليه وسلم بالنبوة هو الأتم والأكمل والأليق ، لأنه وصف يبين حقيقة شخصيته صلى الله عليه وسلم ومنزلته عند الله ـ أن ذلك جائز ، وأنه ليس انتقاصاً لمكانته ودرجته عند الله عز وجل وليس محاولة لإدراج هذا العلم الأرفع فى عداد الناس ولا لنعته بنعوتهم ووصفه بأوصافهم .. فهو المفرد فى تاريخ العرب ، والفذ فى حياة الإنسانية ، والصورة الكاملة التى لم تتجل واضحة فى أحد سواه .. صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما بقيت الأرض والسماء .

٢ — وما هى موازين عظمة نبى الإسلام إذن ؟ إن للعظمة قيما يحكم بها على ضوئها ، وأسساً تبنى عليها ؛ وقد يختلف الناس فى هذه

القيم وفى تلك الأسس ، ولكننا سوف نحاول هنا أن نلم بجميع موازين العظمة والشخصية ، لنزن على ضوئها مدى عظمة نبى الإسلام ونقدرها قدرها الصحيح الذى تجتمع عليه كل الآراء .

ومن البدهى أن الإنسانية كلها مفكريها وروادها وقادتها وسادتها والحاكمين منها والمحكومين على حد سواء قد اصطلحت فى جميع العصور والأجيال على أن نبى الإسلام صلوات الله عليه كان عظيما حقاً فى كل شىء وفى كل جانب من جوانب حياته ، وأنى حين أكتب فى ذلك لا آتى بجديد ، ولا أقرر حقيقة كانت غائبة عن أذهان الناس .

ومع ذلك فإنى أقول : إن العظمة تقاس بقيمة واحدة من القيم ، أو بمجموعة منها . وسوف أدرس تلك القيم واحدة واحدة ، وأبين كيف أنها كلها منفردة توجب وصف محمد صلى الله عليه وسلم بالعظمة بل بأنه أعظم الناس كافة ، وأعظم العظماء منهم خاصة ، صلى الله عليه وعلى آله وصحابته أجمعين .

٣ ـ وأول هذه القيم التى نحكم على ضوئها بعظمة نبى الإسلام .

القيمة الذاتية :

فالإنسان قد يوصف بالعظمة لأنه رجل ناجح فى الحياة وصل فى خضمها إلى كل مايريد لنفسه من نجاح ، نجاح فى الجاه أو المال أو الشخصية أو العمل . وعلى ضوء هذه القيمة نستطيع أن نقول إنه صلى الله عليه وسلم كان أكثر الناس نجاحا فى الحياة : يتيم فقير لا حول

له ولا طول قد أصبح فى عمره القصير صاحب دعوة ورسالة ، ورائد أمة ، بل رائد الإنسانية ، وصار بانى دولة فتية كان بيدها زمام الأمور فى العالم أجيالا طوالا ، كما صار بانى حضارة وفكر ، لم يستطع أحد غيره أن يبنيهما على مر العصور ثم صار موضع الأمل والرجاء فى مجتمعه وموضع الذكر والخلود فى التاريخ ودوى اسمه فى الشرق والغرب ، بل كان اسمه حين يذكر تفزع منه الملوك والأباطرة والقياصرة . أليس ذلك كله نجاحا ، بل أعظم من النجاح ، وأكبر من هذا الوصف المحدود . . وإذاً فمحمد عظيم لأنه كان إنسانا ناجحا فى كل أطوار حياته ، لم يتخل عنه النجاح لحظة واحدة ، حتى فى فترات بؤسه وفقره ويتمه .

أكان ذلك حظا وجدا ، أم كان عن كفاح وجلاد فى الحياة ؟ هذا شىء اخر ، لا أحب أن أتحدث فيه الآن .

وثانى هذه القيم والموازين : هى القيمة المثالية ، فالإنسان لا يعد ناجحا فى الحياة لمجرد أنه نجح فى تحقيق أمنياته فى حياته ، ونال منها كل مايريد ، ولكنه يعد ناجحا لأنه يمثل قيمة مثالية ، قيمة تنطق عن مثاليات الحياة ومبادئها وسلوكها وأخلاقها . قيمة مستمدة من مبدئه الذى سار عليه طيلة حياته فلم ينحرف عنه ، ومن خلقه الذى انطوت عليه نفسه وشخصيته ، فهو ناجح لأنه سار على ضوئه فلم يتزعزع إيمانه به ولا وقوفه عنده فى نفسه . ومحمد صلوات الله عليه من ذلك الجانب عظيم ، وأعظم من كل عظيم ، فقد مثل فى نفسه وسلوكه

وعمله وخلقه كل مثاليات الحياة الطيبة الرفيعة ، من وفاء وصدق وأداء للواجب وللحقوق ، ومن رحمة وإنسانية وشفقة وبر وتواضع وما أصدق ماوصفته خديجة زوجه الطاهرة البرة الأمينة بقولها : « والله لن يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

وكم من أناس أصبحنا اليوم نعدهم ناجحين فى الحياة لمجرد أنهم جمعوا بعض المال والثراء ، أو وصلوا إلى بعض المناصب وبعض الجاه ، وإن كانوا فى صعودهم إلى ماصعدوا إليه يمثلون الانتهازية حينا أوالفساد والانحلال حينا آخر ، أو الجشع وحب النهب والغش وأكل أموال الناس بالباطل حينا ثالثا . . ولو كانت هناك قيم مرعية لطردتهم هى من ساحة النجاح طردا ، وأبعدتهم عن ميدان إدعاء العظمة إبعاداً شديداً .

إن نجاح محمد صلوات الله عليه لم يكن مبنيا على شىء من ذلك كله ، فهو لم يكن أنانيا ولا انتهازيا ولا منافقا ، ولم يكن مواربا ولا مرائيا ولا مخادعا ، ولم يكن سلبيا فى حياته ولا ممن يحرصون على الوقوف فى الموضع الوسط إرضاء لكل الأطراف . . بل قد نزهه الله عز وجل عن كل ذلك واصطفاه على العالمين . كان نجاحه صلى الله عليه وسلم فى حياته مقرونا بالتزامه للمثل والمبادىء ولأشرف قواعد السلوك الإنسانى الرفيع .

وثالث هذه القيم : هى القيمة الروحية وهى قيمة لها خطرها . فالمصلح الدينى عظيم لأنه يمثل قيمة روحية خاصة ، والنبى عظيم ، والرسول عظيم ، لأنهما يمثلان قمة القيم الروحية .

ولقد نزلت آخر الرسالات على محمد بن عبد الله ، وشرفه الله بها فأدى الرسالة وبلغ الأمانة ، ودعا الإنسانية كلها إلى الايمان بدعوته فآمن بها الكثير من الأمم والشعوب والجماعات والأفراد . . ومن هنا كان نزول الرسالة عليه صلى الله عليه وسلم ، أعلى المقاييس لوزن عظمة نبى الاسلام عليه السلام ، فكيف به وقد كان خاتم الرسل والأنبياء ، وكانت رسالته خاتمة الرسالات وكان هو إمام الأنبياء والمرسلين ، والذين اجتمعوا على التبشير به والدعوة إلى بعض أصول دعوته ؟ وفى الحديث الشريف مامعناه : أعطيت خمسا لم يعطهن نبى من قبلى : جعلت لى الأرض مسجدا وترابها طهورا ، ونصرت بالرعب . وأعطيت الشفاعة ، وختمت بى الرسلات .

ورسالته صلى الله عليه وسلم باقية إلى قيام الساعة صالحة لكل زمان ومكان .

إن هذه القيمة الروحية هى أسمى القيم ، وأرفع الموازين ، وأكمل الأسس لوزن عظمة نبى الاسلام ؛ ويكفى أن نقول عنه إنه نبى ورسول فحسب ، فكيف بك إذا أضفت إلى ذلك أن شريعته خاتمة الشرائع وأنها باقية ما بقيت الحياة ، وأنه نزل عليه الذكر الحكيم

كتابا من الله هاديا ومنيراً وداعيا إلى الله وإلى كل قيم الحياة ومثالياتها ومبادئها الشريفة ؟

ورابع هذه القيم : هى القيمة الاجتماعية ، إذ تأخذ من منزلة الرجل فى مجتمعه ، والتفاف الناس حوله ، وثنائهم عليه ، وحبهم له ، دليلا على عظمته . .

وقد كانت منزلة محمد صلى الله عليه وسلم فى المجتمع المكى وفى المجتمع المدنى وفى المجتمع العربى والاسلامى ، بل الانسانى ، منزلة رفيعة لم يدركها أحد ، ولم ينلها إنسان من قبل ولا من بعد . . وكان سعى الرسول لخير المجتمع سعيا رائعا عظيما تتحدث به كتب السيرة النبوية الشريفة . . كان يعطف على المرأة والخادم والعامل والفقير والمريض ، كان يقيم المجتمع على دعائم متينة من الحب والإخاء والمساواة والتكافل الاجتماعى والرحمة والبر . حرر الأرقاء ، أعلى منزلة المستضعفين ، لم يجعل للحاكم فضلا على المحكوم ولا للقوى فضلا على الضعيف .. إلى غير ذلك من المبادىء التى لا يتسع الوقت لتفصيل الكلام فيها .

وخامس هذه القيم : هى القيمة القومية التى تأخذ من زعامة الرجل فى قومه ودعوته لهم إلى قومية واحدة وإلى وحدة تجمع جميع أجناسهم وأصولهم وشعوبهم دليلا على عظمته . . وبهذا المقياس تستطيع أن تقول إن نبى الإسلام كان عظيما حقاً فقد جمع العرب على كلمة واحدة ، ووحد بينهم وألف بين قلوبهم ، وأعلى قوميتهم

ورفعها مكاناً عالياً ، وساوى بينها وبين القوميات الأخرى فى الحقوق والالتزامات ، فلم يكن داعية عنصرية ، ولا ممن يفضلون جنسا على جنس ، ولا لونا على لون ، ثم جمع المسلمين جميعا فى قومية إسلامية واحدة ، ووحد بينهم فى الشرائع والقوانين والالتزامات والأهداف ، فهو رائد لقومية المسلمين .. وهو بذلك أكبر من عظيم وأكثر من رائد وداعية ، صلى الله عليه وسلم .

وسادس هذه القيم : هى القيمة الفكرية التى تبنى عظمة الرجل على فكره وآرائه ومبادئه التى يمثلها ويدعو إليها .. وتفكير الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم وإن كان مستمداً من رسالة السماء فهو يمثل فى شتى وجوهه الحرية والشورى والمساواة ، ويمثل الحق والعدل والإخاء ، ويحارب الطغيان والفساد والانحلال ، ويبنى على الدعوة إلى حمل المسئولية ونشر العلم والعمران والحضارة فى الأرض ، ويقوم على عمد راسخة من الوازع الدينى فى النفس ومن الضمير الحر الدقيق الإحساس بكل شىء ومن تمثل الجزاء الإلهى والخوف من من العقاب الأخروى ، وهو فكر حرر الحياة من نظام الرق والإقطاع والوحشية والجاهلية الأولى ، ونقلها إلى عهود جديدة من المعرفة والحضارة والأخوة فى الله وفى الدين وفى المسئولية .

وسابع هذه القيم : هى القيمة الإنسانية ، التى تأخذ من حياة الرجل ـ لا فى مجتمعه وبين قومه فحسب ـ بل فى صميم الإنسانية كلها ، ميزانا لوزن عظمة الإنسان .

ولقد كان محمد صلى الله عليه وسلم الأب الروحى للإنسانية كلها، اتسع تفكيره لكل الأمم والشعوب والعناصر والأجناس والألوان، دعا إلى وحدة العالم تحت شعار شريعة مطهرة منزلة من السماء، أقام حدودا للعدالة دخل فيها كل صاحب رأى وصاحب دين وكل ذى عنصر أو جنس لا يمت إلى العرب ولا إلى العروبة بسبب.

كان قلبه الكبير يحزن للإنسانية وهى تهوى فى هوة سحيقة من من الشرك والوثنية. فيدعوها إلى توحيد الله وعبادته وطاعته وحده، وكان قلبه يخفق كلما رأى دليلا من دلائل الخير فى الناس والإنسانية.

إن نبى الإسلام بحق يعد الزعيم الأكبر والإمام الأعظم للبشرية كافة. دينه لكل الناس. الكتاب المنزل عليه موجه إليهم جميعا. وما أكثر ما صدرت آياته وسوره بـ « يا أيها الناس » فتشريعات الإسلام ونظمه وقوانينه تستهدف الخير للناس كافة، وتعمل على إقامة مجتمع إنسانى حر كريم تشمله الرفاهية والسعادة والتعاون بين الناس جميعا وتظلله الحرية والمساواة والإخاء بظلها الوارف الأمين.

٤ — هذه هى موازين العظمة، فانظر بالله كيف تنطبق كلها على هذا الرسول العربى الأمين على هذا المبعوث من الله رحمة للعالمين، على من نزل عليه القرآن هدى ورشدا ونوراً لكل الناس أجمعين.

وقد تكون هناك موازين أخرى لوزن عظمة الإنسان ومدى

قوة شخصيته فى الحياة ، وبأى ميزان نزن محمدا نبى العرب ورسول الإسلام ، نخرج بنتيجة واحدة هى عظمة هذا النبى الرسول ، عظمة خارقة للعادة خارجة على المألوف ، عظمة لم يدركها أحد من رواد العالم ، ومفكرى الإنسانية ورسلها البررة الأوفياء .

اللهم إلا ميزانا واحدا ، هو ميزان الشرك والضلال والإلحاد والمادية الكافرة بكل دين وبكل رسول وبكل كتاب ، فإنه لا شأن لنا مع الذين يحاولون رد الإنسانية إلى حياة الغاب ونظام الجاهلية الأولى ، ممن لا يعترفون بحقيقة ، ولا يؤمنون بأية قيم روحية أو غير روحية .

إن محمد بن عبد الله الرسول العربى ، خاتم الرسل ، وآخر النبيين ، قد كان فى كل أطوار حياته ، وفى جميع شمائله وأخلاقه وصفاته ، عظيما ، انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن ترك دولة فتية ، ألقى القدر فى يديها زمام العالم لعدة أجيال ، وأقامها حارسة للحضارة والحرية ، واعتز بها التاريخ رمزاً لكرامة الإنسان وإرادته ولمثاليات الحياة الكريمة وروحيتها الصافية الصادقة .

فما أعظمه نبيا ، وما أرفعه رسولا من عند الله ، مبشر بالحق ، وداعيا إلى الله وإلى صراط مستقيم .

الاسلام وغربة الفكر

ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده
كفرتم ، وأن يشرك به تؤمنوا ،
فالحكم لله العلى الكبير .
١٢ — غافر

بدأ الاسلام غريبا حقا بين المــذاهب والآراء والديانات والحضارات القديمة لأنه فكرة التوحيد والعلم والمدنية والحضارة والمثل العليا ، وعقيدة الحق والخير والانسانية ، ولأنه دين القيمة ، « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة » ، والاسلام دين العلم والنور والسلام والأمان والحرية والمساواة والاخاء ، وهذه مبادىء لم يكن العالم يعرفها قبل نزول القرآن ، فبدأ الاسلام غريبا فى وسط المبادىء والقيم التى كانت سائدة فى الحياة آنذاك .

وظل الاسلام ينتشر نوره ، ويعلو ضوءه ، حتى شمل العالم المعروف آنذاك ، وصار للمسلمين راية تخفق فى كل مكان ، وصار المسلمين دولة واحدة ، هى دولة الخلافة الاسلامية وبلغ من عظمة المسلمين أن خاطب هرون الرشيد سحابة فى السماء فقال : أمطرى حيث شئت فسيأتينى خراجك » .

وبعد قرون وأجيال جاء الاستعمار الغربي يسيطر على بلاد العالم الاسلامى ، وأخذ يبعد المسلمين عن دينهم وقوميتهم ، وحارب مبادىء الاسلام ، وحال بينها وبين التطبيق العملى فى بلاد المسلمين ، وزعزع قومية العرب والمسلمين ، وأزال نفوذهم وسلطانهم الموروث ، ونشأ طبقات من أبناء الاسلام على ثقافات الغرب ومدنيته ، فأخذوا - جهلا بالدين - يحاربون الدين ويرمونه بالجمود .

وبدأت راية الاسلام يتقلص نفوذها ، وذهبت فلسطين من أيدى المسلمين كما ذهبت الأندلس من قبل ، وصار المستمسك بدينه كالقابض على الجمر ، وأصبح المؤمن يدعى رجعيا وجامدا ، وذهبت معانى الغيرة والشرف والكرامة والرجولة من النفوس المسلمة ، وصار المسلمون بتأثير الاستعمار الفكرى الذى سيطر على بلادهم مع الاستعمار السياسى يستوردون المبادىء والثقافات من أوروبا كما يستوردون السلع ، ويختلفون فى تفضيل هذه المبادىء والأفكار ، وهم يؤكدون كذبا وبهتانا أن الاسلام لا يصلح أن يكون موضوع خلاف ولا مثار جدل ، وهذا كله هو مصداق قول الرسول الأكرم « وسيعود غريبا كما بدأ » .

إن كثيرا من أبناء المسلمين ، وخاصة أولى النفوذ والسلطان ، يشايعون الاستعمار الغربى ، ويفضلونه على صداقة الأمم العربية المسلمة الشقيقة ، مما تجلى فى صنيع دول عربية مسلمة ، وفى غير ذلك من أحوال الأمم الاسلامية الحاضرة .

وأصحاب الثراء في العالم الإسلامي اليوم بعيدون عن الأخلاق والمثالية والدين ، وكان من الواجب أن يكونوا في مقدمة العاملين لمجد الاسلام وعزة المسلمين ؛ ولكنهم - قاتلهم الله - شر وبلاء على على الاسلام وأهله . وحرب على الدين وذويه .

وهكذا عاد الاسلام غريبا كما بدأ ، وعاد المسلم غريبا في مجتمعه. كما عاد المعروف منكرا ، والمنكر معروفا ، وأهدرت القيم والموازين ، وانقلبت الآية ، وأصبح المسلمين أضعف الناس في موازين القوة ، لأنهم نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، ولأن الاسلام لم يعد يملأ قلوبهم وجوانحهم ، وصار المؤمن يعيش غريبا في وسط قوم لا يألفهم ولا يألفونه ، فطوبى للغرباء .

ولو أن المسلمون فهموا أنهم أقلية في الأرض ، وأنهم مهما ملكوا أسباب القوة ، فلن يصلوا إلى ما وصل إليه الغرب بماديته وثرائه وتفوقه العسكري والعلمي والاقتصادي ، ولو أنهم علموا أن ضعفهم يستحيل إلى قوة إذا كانوا مع الله ومع شرائعه ، وعملوا بذلك ، لصاروا اليوم أقوى الناس . . ولكن الإسلام عاد بينهم أنفسهم غريبا . . . فطوبى للغرباء .

الاسلام دعوة إلى العلم

— ١ —

« طلب العلم فريضة على
كل مسلم ومسلمة »

حديث نبوى شريف

يدعو الاسلام إلى العلم والتعلم بكل وسيلة يستطيعها الانسان ، ويحض العقل على التأمل والتفكير ، ويفرض على العالم إرشاد الجاهل ، وهو بحق دين العلم والمدنية والعرفان ، وقد صحبت الثقافة الاسلام فى كل مكان ، وكانت العواصم الاسلامية الكبرى تموج بالعلم والعلماء . ومنها انبعث نور المعرفة إلى أقاصى الدنيا . وكان الخلفاء والأمراء والملوك يشجعون العلماء والأدباء ورجال التربية والثقافة والفن تشجيعا مستمرا .

كل هذه حقائق لا يستطيع أن يتمارى فيها إنسان .

أما التربية الاسلامية الصحيحة ، فهى مفروضة ، فعلى الآباء تربية أبنائهم وإرشادهم ، فى المنزل والمسجد ، وفى المدرسة ، وفى مجالس العلم والعلماء . وعلى النظم العامة أن تتيح الفرصة لكل إنسان أن يتعلم وأن يصل إلى أقصى درجة من المعرفة .

وأساس التربية تنبيه الضمير ، وتقويم الوجـــدان ، وتهذيب

السلوك ، وتنمية الادراك . وعلى المعلم أن يكون قدوة للمتعلمين فى آدابه وأخلاقه وسلوكه .

ولافرق بين المرأة والرجل والفتاة والفتى فى مجال التربية والثقافة: « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، وكان النساء يحضرون مجالس رسول الله ويسمعن إرشاده وتوجيهه ، وكانت عائشة أم المؤمنين تفتى الناس ، قال رسول الله : خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء .

كما أنه لم يكن هناك فرق بين العناصر والألوان والأجناس فى هذا المجال : مجال التربية والتعليم والثقافة ، وكان كثير من أعلام العلماء فى الأمة الاسلامية من أصول وعناصر غير عربية . . فأين هذا مما يحدث الآن فى بعض أنحاء العالم من حرمان الزنوج السود من مساواتهم بغيرهم حتى فى ميدان الثقافة . ولعلك قرأت قصة الطالب الزنجى « پرس لى جوليان » الذى كان متفوقا طول حياته فى دراسته حتى نال درجة أستاذ فى الكيمياء ، فرفضت جامعة هارفرد أن تعينه فيها معيدا ، بحجة أن الجامعة تخشى أن يأبى البيض أن يقبلوه معلما لهم .

إن الاسلام الذى حرر العقل البشرى من كل قيد ، هو هو الذى حرر الثقافة وميدان التربية من كل الأغلال القديمة والحديثة على السواء .

وأساس التربية الاسلامية إنسانى محض : إشعار الانسان بأنه مسئول عن الانسانية جميعها . . . اقرأوا إن شئتم قوله صلى الله عليه وسلم : « مامن مسلم يغرس غرسا ، أويزرع زرعا ، فيأكل منه طير أو إنسان أوبهيمة ، إلا كان له به صدقة » ، أو قوله : لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، أو قوله : « إن الله تعالى كتب الاحسان على كل شىء » ، أو قوله : « إذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » ، أو قوله : « دخلت امرأة النار فى هرة حبستها فلا هى اطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » ، أو قوله لأعرابى أجهد بعيره فلما كل من العمل أراد أن ينحره : « إن بعيرك يشكوك ، أكلت شبابه حتى إذا كبر تريد أن تنحره » . . فستجدون الطابع الانسانى واضحا كل الوضوح فى كل كلمة وكل عمل وكل مبدأ وكل تشريع فى الإسلام عامة وفى التربية الاسلامية خاصة .

يبنى « أما نول كانت » مذهبه فى الأخلاق على أن حسن النية هو الأساس الأول فى الأخلاق . . ولعلكم تتذكرون قول الرسول الأعظم : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » ، وتعلمون أن محمد بن عبد الله سبق الفلاسفة كما سبق المشرعين والمفكرين إلى كثير من النظريات العامة فى الأخلاق والاجتماع والتربية .

— ٢ —

وقد اتبع المسلمون هذا المنهج فكان منهم عباقرة أفذاذ أمثال جابر فى الكيمياء والرازى فى الطب وابن الهيثم فى الطبيعة وعلم الاضواء وابن خلدون فى سنن الله فى الاجتماع وغيرهم ، وسار المسلمون خطوات فكانوا سادة العالم المسيطرين على ناصيته .

ثم تغلغت فى المسلمين الفلسفة اليونانية فحل المنهج العقلى محل المنهج التجريبى فى دراسة الطبيعة ووقف الركب عن التقدم ، بل بدأ الركود إلى أن وصلنا إلى ما نحن عليه الآن .

ولكن المنهج الإسلامى وصل إلى أوربا فأخذت به وبدأت نهضتها العلمية . ومن المعروف أن حضارة أوربا الحالية لا تقوم على منهج هركليب فى الطبيعة أو على قياس أرسطو ، أو على بداهة ديكارت وانما تقوم على المنهج التجريبى الذى أخذ به روجر بيكون وفرنسيس بيكون ولكنهما لم يبتدعا هذا المنهج بل أخذاه عن المسلمين وكانت هذه الحقيقة التى لاشك فيها، فان الأوربيين المتعصبين يخفونها لانهم يريدون ألا يتحلى العرب بأية فضيلة ولكن المنصفين منهم يعلنونها فى قوة وفى صراحة ومنهم جوستاف لوبون فى كتابه حضارة العرب والاستاذ بريفولت فى كتابه الانسانية فهو يذكر لنا جملة من الحقائق التى ليست محلا للشك فيها .

إن روجر بيكون درس اللغة العربية والعلوم العربية فى

اكسفورد . . وكان يصرح باستمرار أن تعلم اللغة العربية وتعلم علوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الصحيحة . وإن منهج العرب التجريبي كان قد انتشر فى عهد بيكون انتشارا واسعا وأخذ الناس يدرسونه فى لهفة وشوق ويتعلمونه فى جميع ربوع أوربا . . ويعترف بريفولت بأن العلم الإسلامى والحضارة الإسلامية تضافرتا على بعث باكورة الحياة العلمية فى أوروبا ، فيقول :

« وإنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحى الازدهار الاوروبى ألا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الاسلامية بصورة قاطعة فان هذه المؤثرات توجد أوضح ماتكون وأهم ماتكون فى نشأة تلك الطاقة التى تكون ماللعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة وفى المصدر القوى لازدهاره - أى فى العلوم الطبيعية - وروح البحث العلمى » .. ثم يقول هذه الكلمة الحاسمة .. « إن مايدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه الينا من اكتشافات مدهشة فحسب ، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من ذلك ، إنه يدين لها بوجوده نفسه(١) » .

— ٣ —

دعا الإســـلام العقل البشرى إلى حب المعرفة ، وغذى ضمير

---

(١) التفكير الدينى فى الإسلام - ترجمة عباس محمود

الإنسان بحب الخير والرحمة والبر والسعادة والرفاهية لبنى الإنسان جميعا ، ووجهه إلى مافيه تقدم الإنسانية جمعاء .

دعا الإسلام إلى العلم ، لأنه منذ أقدم عصور التاريخ ولا يزال رافع منار المدينة ومشيد مجد الشعوب ، وغذاء العقول والأرواح ، والدواء الناجع لأمراض النفوس والجماعات ، إن حرصت على استخدامه فى سبل الخير ولتأييد نواميس الله فى الكون والحياة . . وهو الداء المبيد ، والسم القاتل ، إن استخدم أداة للفتك والدمار .

ولاعجب فالعلم كاشف أسرار الحياة ، ومغاليق الكون ، وأسباب الثروة ، وبه تسعد الإنسانية ، ويبسم الأمل للناس . . وماهذه المبتكرات فى الصناعة والتجارة والزراعة والعلوم والفنون إلا ثمرة من ثمار العلم . الذى قد يصبح وبالا على الانسانية والشعوب ، حين يكون وسيلة لاختراع المفرقعات والمدمرات والقنابل والمدافع ، وما اليها ، مما يعم شره وهلاكه ولا يخص أحدا من الناس . ومهما كان فإن العلم اليوم ـ فوق استخدامه وسيلة لكسب الحرب وإشاعة التدمير والهلاك ـ يوفر الأدوات فى شتى مرافق الزراعة والصناعة والاقتصاد ، وهى تقوم مقام عدد كبير من العمال . . وبذلك يتسبب فى خلق مشكلة البطالة ، وحرمان كثير من العمال من الرزق .

والعلم على أى حال محمود لايذم ، محبوب لايكره ، لأنه خير فى ذاته ، وآثاره الخيرة الجميلة لاتعد ولا تحصى ، ولن يغض من شأنه مايقوم به العلماء من ابتكار آلات التدمير والاهلاك .

وإن الاسلام ليقف حارسا للعقل البشرى ، يوجهه ويهديه ، يوجهه إلى الخير ، ويبعده عن الشر ، ويدفعه إلى أن يفكر فى كل مايعود على الانسان والانسانية بالسعادة والرفاهية ، ويحول بينه وبين أن يكون أداة لشقاء بنى الانسان . . إن النور يضىء ، فإذا انقلب نارا أحرق ودمر ، وإن العقل يبتكر ويفكر ، فإذا اندفع إلى التفكير فى الشر أهلك وأفسد . وإن الله هو صانع الحياة ولا يحب أن يدمرها إنسان . .

ولقد كان المسلمون فى جميع العصور يخضعون العقل للضمير ، ويوجهون العلم للخير ، ولنفع بنى الانسان ، ولخـــدمة الجماهير ، ولإسعاد البشر . . وكانت حروبهم لاتعتمد على السلاح الفاتك ، ولكن على الايمان العميق.. وبذلك لم يسعوا يوما فى التدمير والفساد فى الأرض ، بوازع من دينهم الكريم .

دين الثقافة والمعرفة

« اقرأ باسم ربك الذى
خلق ، خلق الإنسان من
علق ، اقرأ وربك الأكرم،
الذى علم بالقلم . . . . »

(١)

لنذكر بالفخر أياما مضت ، حمل المسلمون فيها مشاعل النور ، ومصابيح الحضارة ، ورفعوا للإنسانية صروحا عالية ، وقبابا سامقة ، يؤذن عليها بدعوة الحق والعلم ، والحكمة والمعرفة ، والثقافة الشاملة ، والمدنية المهذبة . .

ولنحى بالإجلال جهود علماء المسلمين الأولين فى مكة والمدينة والبصرة والكوفة ، والفسطاط والقاهرة ، ودمشق وبغداد ، وقرطبة وغرناطة والقيروان ، وبخارى وسمرقند وجرجان وسواها من عواصم الإسلام الكبرى ، التى قامت فيها الجامعات الإسلامية ، ومن بينها الأزهر جامعة الإسلام الكبرى ، ومعهده العتيق ، ذو التاريخ الحافل ، والجهاد العلمى الطويل المتصل ، خلال عشرة قرون أو تزيد .

وهل ننسى محمد بن موسى الخوارزمى واضع علم الجبر ، والحسن ابن الهيثم مبتكر نظريات علم الضوء ، وابن النفيس مؤلف رسالته

فى الدورة الدموية ، وجابر بن حيان صاحب المؤلفات فى علم الكيمياء والفارابى وابن رشد والغزالى وسواهم من العلماء والمفكرين المسلمين ، الذين كانوا يبحثون ويدرسون ويدونون ، ويقيمون الصناعات ، ويخترعون الآلات ، ويرقبون حركات الكواكب فى أفلاكها ، ويقيسون محيط الكرة الأرضية بالأجهزة الدقيقة ، وينشرون الثقافة بين الناس ؟

وكيف ننسى وديننا دين العلم والثقافة ، والداعى إلى تقديس الحكمة والاستنارة بها ، وكتابه الحكيم ذخيرة من الهداية والمعرفة والإسلام رسالة عالمية تضمنها القرآن الكريم ، وإن الإنسان ليقف مشدوها أمام العظمة الفكرية التى تجلى فيها الإسلام على محمد عليه الصلاة والسلام ، ومابالك بدين يعز العلم ويرفع شأن العلماء ، ويعدهم المصابيح الهادية للإنسانية ، ويجعل قداسة العلم مضارعة لقداسة العبادة لأنه يعتبر العلم فى ذاته من أسمى العبادة ، وحسبك أن القرآن الكريم دائم التذكير بالعقل والتدبر والتفكير ، وقد ذكر العقل باسمه وأفعاله زهاء خمسين مرة ، وذكر العلم فى مواضع من آياته تناهز المائة وذكر مشتقاته أضعاف ذلك ، وجاء فيه ذكر « أولى الألباب » أى العقول بضع عشرة مرة ، وذكر فيه « أولو النهى » أى العقول فى آخر سورة طه ، وجاء فيه ذكر الحكمة مرات كثيرة ، وهى بمعنى التفكير الرفيع ، والفلسفة العملية : كعلم النفس والأخلاق ، وأسرار الخلق ، وسنن الاجتماع ، وفلسفة التاريخ .

والعلم فى القرآن يشمل علوم الدين والدنيا فى شتى أنواعها وفروعها ، وهذا العلم هو ثقافة المسلم خلال الأجيال ، وهو واجب على المسلمين كافة ، كما يعبر عن ذلك الحديث النبوى الشريف « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وبلغ من إعزاز شأن العلماء فى الإسلام أن جعلهم الرسول صلوات الله عليه وسلامه ورثة الأنبياء ، وجعلهم فى الذروة من طبقات الأمة ، فقال : « خيار أمتى علماؤها وخيار علمائها فقهاؤها » يريد أن أفضل الناس هم العلماء وأفضل العلماء هم المتخصصون فى شتى الدراسات ، سواء منها الدينية والدنيوية ، ولقد قدم محمد الرسول الأمى للعالم مثالية قوامها العلم والفلسفة العملية ، وهذه المثالية العلمية هى التى أثلت للحضارة الإسلامية مجدها التليد المرموق ، وقد جرى هذا فى وقت لم يكن للعلم الواقعى فيه شأن مذكور فى حياة البشر ، بل كان الشأن للأساطير والأوهام . . ثم نادى بصلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ، وبأن المستقبل له ، وبهذا تقدم الرسول بمعجزة أخرى لم تدركها أفهام الناس من قبل ، ووضع الأساس لديانة تقدمية صادقة ، تحترم العلم والعقل ، وتوجه الانسان إلى تفسير الوجود والحياة فى ضوئهما ، ولم يحصر رسالته فى قومه . بل ارتفعت شخصيته فوق حدود البيئة والمكان والزمان وهذه العظمة الذهنية هى إحدى معجزاته العظيمة ، ولم تكن الحضارة الإسلامية العالمية الشاملة إلا نتيجة من نتائج الفلسفة الإسلامية العملية ، وليس المنهج العلمى التجريبى الذى يعتمد على المشاهدة والتجربة والتمحيص وامتحان المقدمات من وضع بيكون فى كتابه « الأداة

الجديدة ، الذى ألفه عام ١٦٢٠ ميلادية ، بل إن القرآن الكريم هو الذى وضع قبل ذلك التاريخ بألف عام أساس هـــذا المنهج العلمى بما حوت آياته من دعوة إلى التأمل والنظر والتفكير ، وترك الأوهام والتقليد ، وهذا المنهج القرآنى الرفيع يجب أن ترتكز عليه ثقافة المسلم اليوم ، حتى يفكر بالعقلية العلمية ، فيواجه الحقائق ، ويعنى بالجوهر دون العرض ، ويطلب اللب دون القشور .

وفرض العلم وجعله إلزاما على كل مسلم هو الذى ساعد على انتشار الروح العلمى بين المسلمين فى الأمس البعيد ، وما أحوجنا اليوم إلى هذا كله لنستعيد مجدنا العلمى الغابر ، ونسترد شخصيتنا الإسلامية التى تعد الثقافة العلمية أولى ميزاتها الأصلية .

لقد كان من أخص صفات المسلم فى القديم الحرص على التزود بقسط من الثقافة ، وطلب العلم من المهد إلى اللحد ، والرحلة من أجله والهجرة فى سبيله ، والإقبال على القراءة وعلى تكوين مكتبة متخيرة فى كل منزل ، وحث الأبناء على الإقبال على العلم ، وكان من الشعائر كذلك : بذل الأموال الطائلة فى سبيل تشجيع البحث والثقافة وإعزاز شأن العلماء حتى لقد كان الناس ينصرفون عن مواكب الرشيد فى عنفوان خلافته ليسيروا فى مواكب العلماء ، وكان العلم نورا يضىء لا نارا تحرق ، فلم يتخذوه وسيلة للإفساد ولا للتجارة والمنصب حتى لقد أريد أبو حنيفة على تولى منصب القضاء فأبى ذلك إباء شديدا وكذلك فعل غيره غيره من أعلام الفقهاء .

وظل المسلمون يحرصون على الثقافة حرصا ظاهرا ، والتراث العلمى والفكرى فى نضوج مستمر ، حتى توالت على المسلمين المحن ، فبددت هذا التراث العلمى الخالد ، وأشاعت الجهل فى العالم الإسلامى ، وفى مقدمة هذه الأحداث : تخريب العبيديين (الفاطميين) وإحراقهم فى آخر دولتهم لمدينة الفسطاط عام ٥٦٤ هـ ، بما فيها من مساجد ومدارس وجامعات ومكتبات وكتب تعد بالملايين ، ثم تخريب التتار لبغداد مركز الحضارة الرفيع فى العالم الإسلامى عام ٦٥٦ هـ ، ثم سقوط الأندلس فى أيدى الأسبان الجهلة المدمرين عام ٨٩٧هـ . وافناء علمائها ومكتباتها وجامعاتها العتيدة .

وكان الملوك فى العالم الإسلامى يحمون الجهل لتظل الشعوب مسخرة لطغيانهم .

واليوم الذى فقد المسلمون فيه الزعامة العلمية والفكرية فى العالم هو اليوم الذى فقدوا فيه نفوذهم الدولى ، ومكانتهم الرفيعة بين الشعوب ، وجاءت أوربا فوضعت يدها على تراث المسلمين العلمى والفكرى والحضارى ، واغتصبته لنفسها ، بعد أن كانت قد ترجمت علوم المسلمين ومعارفهم وفلسفاتهم فى القرن الثانى عشر والثالث عشر الميلادى .

إذا أرادت الشعوب الإسلامية اليوم أن تنهض من جديد ، وأن تتبوأ مكانها المرموق بين الأمم ، فعليها أن تحارب الجهل ، وأن

تسرف كل الإسراف فى نشر التعليم ، وإقامة المدارس ، وبناء الجامعات ، وفتح الأندية الثقافية ، والمكتبات العامة ، وتشجيع الكتاب العربى ورعايته ، كما تشجع انجلترا مثلا الكتاب الإنجليزى وتتخذه أداة للدعاية لها فى كل مكان فى العالم .

يجب أن تنخفض هذه النسب المرفوعة للأمية فى العالم الإسلامى كله ، وأن لا يكون العلم فى مدارسنا معناه القراءة والكتابة فحسب ، بل يجب أن يكون التعليم الثانوى فرضا واجبا على كل مسلم فى كل مكان من العالم الإسلامى .

— ٢ —

إننا لنتألم حين نرى المجتمع الإسلامى لا يقدر العلم والعلماء ، ولا يحرص على القراءة والاستفادة ، وحين نرى العلماء يخلدون إلى الراحة ، والجامعات تهتم بالمظاهر لا بالحقائق . والعصبيات الثقافية يهدم بعضها البعض الآخر والصحف والمجلات تصبح مصادر لثقافة الشعب . ونأسف حين نرى المادة الجامحة تصد الشباب عن العلم ، والطلاب يجعلون هدفهم النجاح فى الامتحان لا للعلم فى حد ذاته .

إننا نطالب بالاهتمام بالثقافة الإسلامية والتعليم الدينى وتقريرهما فى المناهج الدراسية الحديثة ، بحيث تصبح المناهج شاملة لشتى الثقافات الإسلامية والعربية القديمة والجديدة على السواء .

ونطالب بالغاء قيود التعليم كافة فى البلاد الإسلامية ، حتى يصبح العلم متاحا للجميع دون استثناء ، فليس للتعليم فى الإسلام قيود ولا لوائح ولا قوانين تصد عنه .

ويجب الاكثار من مدارس التعليم للكبار . فالعلم حق للجميع . الكبار والصغار جميعا فيه سواء .

إن المسلم الذى يحب أن يعيش عزيزاً فى وطنه . كريما على الناس هو الذى يحرص على الثقافة ويتزود بأكبر قسط من المعرفة والعلم ، ليرفع من مستواه المادى والأدبى . وليتحرر من الجهل والفقر والمرض . وليكون العلم وسيلته لنشر السعادة والرفاهية والخير والأمن والسلام بين الناس .

العلماء المسلمون يبحثون

— ١ —

« الذى علم بالقلم ، علم الانسان
ما لم يعلم . . »   قرآن كريم

من وحى الوطن الإسلامى الخالد ، نذكر هؤلاء العلماء الأعلام في تاريخ الثقافة الإسلامية بمزيد من الفخر والإكبار التقدير ، نذكر طائفة من حملة مشاعل النور والثقافة فى العالم الإسلامى رفعوا رأس الشعوب المسلمة عاليا نحو السماء ، نذكر روادا من رواد المعرفة سجلوا بمداد من نور مجدا لا يبلى للاسلام والمسلمين ، نحيى فى إكبار وإجلال هذه الكواكب من أسلافنا وعلمائنا ، ممن توجوا تراثنا العربى القديم بالرفعة والمجد والخلود .

فى القرون الوسطى حيث الظلام والجهل والوحشية كانت تسود أوربا والشعوب البدائية فى العالم ، كان المسلمون يؤسسون الجامعات ويبنون المعاهد ، ويشجعون العلماء ، ويرعى ملوكهم الثقافة وشئون الفكر والمعرفة . وكان العلماء أنفسهم يبحثون ويعللون ويستنبطون ويستنتجون ، ويصلون إلى نتائج مذهلة محيرة ، لأنها لم يدركها من قبل أحد .

إن الإسلام يحق دين العلم والمعرفة والثقافة لأنه يحض عليها ، ويدفع إليها ويوجب العلم والتعليم على كل مسلم ومسلمة .

وقد ضرب العلماء المسلمون الأمثال الرفيعة فى تاريخ الثقافة العالمية ، حتى ليقول مستشرق معاصر هو عبد الكريم جرمانوس : « إن على المسلمين أن يفخروا بأسلافهم ، ويستمدوا من مواهبهم وعيا يقودهم إلى مستقبل جديد » .

— ٢ —

ونحن هنا نضرب المثل بعلماء الجغرافيا المسلمين ، لنذكر ماذا قدموه للانسانية وللعالم من بحوث ودراسات ، خدمت العالم خدمات جلى ؛ وهؤلاء العلماء بحق قد أضافوا إلى حقل الثقافة الإنسانية كل جديد مما لم يصل إليه أحد قبلهم ، يقول المستشرق المجرى عبدالكريم جرمانوس :

تعتبر الأبحاث الجغرافية الإسلامية من أقيم ماساهم به علماء المسلمين فى ميدان المعرفة العلمية . وقد كان لفريضة الحج والحركة التجارية الإسلامية الواسعة اليد الطولى فى اقبال هؤلاء العلماء على التعمق فى دراسة الجغرافيا . وقد دأب رجال الأعمال والعلماء من المسلمين على وصف تجاربهم فى هذا الميدان ، ولم يقف الدين الإسلامى حائلا بينهم وبين نشر الحقائق الجغرافية التى يتوصلون إليها ، ولذا فانهم لم يلجأوا إلى المغالطات ، التى كان العلماء المسيحيون يلجأون اليها لاضطرارهم إلى التمسك بتعاليم دينهم ، الأمر الذى كان يباعد بينهم وبين الاعـــتراف بكروية الأرض أو بقياس أطوالها بالوسائل العلمية .

وهناك مجموعة كبيرة من علماء الجغرافيا المسلمين الذين لاتزال مؤلفاتهم تعتبر مراجع قيمة للمعرفة ويقف على رأس هذه المجموعة ابن قرطبة الذى عاش فى النصف الأول من القرن التاسع الميلادى والذى يعتبر حجة فى مملكة ميديا القديمة ، وهى مملكة كانت قائمة فى الأجزاء الشمالية الغربية من ايران الحالية وبلغت أوجها فى القرنين السادس والسابع الميلاديين . ويعتبر كتابه « كتاب المسالك والممالك » أقدم دليل بين أيدينا .

أما أبو اسحق الفارسى فقد ولد فى مدينة « برسيبوليس » القديمة التى يطلق عليها العرب اسم « اصطخر » . ولذا فقد عرف هذا العالم باسم الاصطخرى . وقد قام ابن حوقل بعد ذلك بنسخ كتابه الذى يحوى وصفا دقيقا للدولة وسكان كل إقليم فيها . وفى القرن العاشر الميلادى ظهر المقدسى الذى ولد فى القدس عام ٩٤٦ م . وقد وضع هذا العالم بين أيدينا وصفا دقيقا لتجاربه فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » . ويعتبر ياقوت الذى توفى عام ٦٢٩ هـ : ١٢٢٩م أفضل الوصافين الجغرافيين . وقد خلد معلوماته فى كتابه العظيم « معجم البلدان » . كما أنه أبدى اهتماما مماثلا بالأدب فقدم لنا كتابه الشهير « معجم الأدباء » .

وقد اعتبر الادريسى الذى عاش فى القرن الثانى عشر الميلادى جزر فارو أقصى نقطة شمالى أوربا ، ولكنه يذكر ايرلندة التى كان الاسكندناويون قد أقاموا فيها ثلاث مستعمرات والتى كانت تمثل

فى قصصهم الخرافية ما تمثله أمريكا أو « العالم الجديد » ، وقد أشار ياقوت إلى شلزويك و بيرجن بالنرويج كما عرف الادريسى الدنمرك والنرويج والسويد وفنلندة . ومما يذكر بهذا الشأن أن الادريسى استمد معرفته بهذه البلدان النائية من بلاط الملك روجر الثانى (١١٣٠ — ١١٥٤ م) وهو أول ملوك صقلية الذين نسلوا من أصل عربى . ويحوى الكتاب الجغرافى العظيم الذى وضعه البكرى جانبا من تقرير ابراهيم بن يعقوب الذى زار بلاط الامبراطور أوتوا العظيم (٩٦٢ — ٩٧٣) بأمر من خليفة قرطبة وضمن تقريره وصفا لألمانيا والمناطق السلافية . ويرى بعض الباحثين أن العرب قد عبروا بحر البلطيق .

وقد قطع ابن بطوطة (المتوفى عام ١٣٧٧م) أطول مسافة من مسقط رأسه (طنجه) حتى بلغ الصين . كما وضح بدقة بالغة أسباب طول النهار فى أشهر الصيف فى الشمال وعرف البحارة العرب اليابان وجزيرة مدغشقر التى كانوا يعتبرونها المكان الذى يفرخ فيه طير « الرخ » الخرافى . كما كتب علماء الجغرافيا العرب عن ولاية الزنوج الواقعة بين نهرى سنغال ونيجر ، وفضلا عن ذلك فقد عرفوا جزائر « كناريا » فى المحيط الأطلنطى وجزيرة « تناريف » .

وكان العرب على اقتناع تام بأن الأرض كرة تطفو فى مركز الوجود ، ويقول لنا أبو الفداء (المتوفى عام ١٣٣١م) إنه إذا ابتدأ رجلان بالسير واتجه أحدهما شرقا والآخر غربا فانهما يتقابلان .

ولما كان تحديد الامكنة أمرا بالغ الأهمية عند المسلمين ، وذلك لتحديد اتجاه القبلة ، فقد تخيلوا خطوطا مشعة تنبعث من مكة وتتجه فى كل الاتجاهات ، كما عرفوا أنه إذا وجد بعض المسلمين فى الجهة المقابلة للكعبة ، فان مثل هؤلاء المسلمين يستطيعون استقبال الكعبة من اتجاهات عديدة .

وقد كانت مراصد الفلك فى الرقة وبغداد وانطاكية ودمشق وتوليدو تتبادل النتائج التى تتوصل اليها ، وقد قال الزركلى (وهو من توليدو) عام ١٠٧٥م إن الظهر فى بغداد يسبق وقت الظهر فى توليدو بثلاث ساعات و ٢٦ دقيقة . وقد تمكن الزركلى من قياس طول البحر الأبيض المتوسط بنظرياته ، كما تمكن العالم المراكشى أبو الحسن من تحديد موقع ٤٤ مكانا تقع بين غرب أفريقيا والاسنكدرية ومن قياس ابعادها وتمكن فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى من قياس طول البحر الأبيض المتوسط ولم يزد الخطأ فى قياسه على درجتين ، ولم يصحح هذا الخطأ إلا فى القرن السابع عشر حين استخدم الأوربيون المجهر فى قياسه .

وقد كان البيرونى (المتوفى عام ١٠٣٨ م) أول من عرف الهند بأنها شبه جزيرة . وكانت تبدو فى خريطة بطليموس جزيرة مسطحة وقد درس البيرونى اللغة السنسكريتية كما درس عددا كبيرا من المؤلفات العلمية والفلسفية الاغريقية من الترجمات التى كانت قد وضعت لها باللغة العربية . وقد أدرك البيرونى أن أعلى قمم العالم هى التبت فى آسيا والبيرنيه والآلب فى أوربا .

خليق بالذكر أن العرب كانوا يدركون أن سطح الأرض غير ثابت كما أنهم سجلوا الفرق فى مستوى البحر بين جزر لاكاديف وملاديف . وقد ذكر المسعودى حقيقة مذهلة حين قال : انه لاتوجد قارة واحدة تظل جافة أو مغمورة بالمياه . وان القارات قد تغوص تحت المياه أو تجف مياه البحار خلال تاريخ الأرض الطويل . وقال كذلك إن رواسب الانهار تتجمع فى الدلتا وان المدن تتراجع فى اتجاه البر نتيجة لاتساع الاراضى الجافة نحو البحر . وقد لاحظ المسعودى هذه الظاهرة الجغرافية فى رواسب نهر دجلة والفرات . كما رأى أن مدينة الحيرة قد أصبحت برية خلال ٣٠٠ عام .

أما القزوينى الذى عاش فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى فقد لاحظ أن الانهار والرياح تنقل رواسب الهضاب إلى التربة الخصبة فى السهول التى تكون فى ارتفاع مستمر . وهى حقيقة لم يعترف بها إلا فى السنوات الاخيرة . كما كان القزوينى أول من أدرك أن الرياح الشمالية الاسيوية هى التى تحدث الجفاف وان الرياح الجنوبية هى التى تشبع الجو بالرطوبة ، لان الاولى تهب من المناطق الصحراوية بينما تهب الثانية من البحر . وكان القزوينى يعلم أن الرياح المشبعة بالبخار لاتلبث أن تسقط أمطارا إذا مااصطدمت بالجبال ، وهذا هو سبب سقوط الامطار الموسمية . وقد شرح المسعودى السبب فى عدم سقوط الابخرة من مياه البحر على صور أمطار مالحة بقوله : إن عملية التبخر تخلف الملح وراءها .

وقد استطاع الأوربيون أن يتعلموا الكثير من مؤلفات الرحالة المسلمين ، فقد كان المسعودى أول من وصف الطواحين الهوائية فى سجستان « التى لا ماء فيها » ، كما وصف الادريسى أنابيب المياه التى يستعملها المغاربة والمضخات التى تزودها بالماء فى توليدو ، وفضلا عن ذلك فقد قدم لنا بيانا مفصلا عن عملية فصل المعادن عن الذهب ، كما ذكر استخدام أسمدة الطيور فى زراعة العنب والتمر .

وتعتبر جميع هذه المعلومات العلمية خير عوض عن بعض البيانات الخيالية أو الخرافية التى اندست بين التقارير التى وضعت فى العصور الوسطى والتى استمرت تجول فى أذهان بعض الغربيين بعد ذلك بوقت طويل وقد لعبت الدوافع الدينية فى بعض الأحيان دورا هاما فى ظهور بعض الخرافات البريئة . ويقول لنا القزوينى : إن رحمة الله تتبدى فى أنه جل جلاله لا يسمح للمطر بالسقوط فى المناطق غير المأهولة بالسكان وأنه يرسل هذا المطر إلى الحقول الخصيبة وحدها .

أما الغرب فإنه لم يدرك قيمة ما أسهم به علماء الجغرافيا من المسلمين إلا بعد قرون عديدة ، وكان أول من أدرك ذلك العالم ولهم بوستل ، الذى استمد بعض معلومات كتابه « كوزموجرافيا » الذى ظهر فى « بال » عام ١٥٦١ من أبى الفداء وقد ذكر ياقوت للمرة الأولى كمرجع فى المحاضرة التى ألقاها « يعقوب جرنوفيوس » فى ليدن عام ١٧٠٢ .

— ٣ —

هذه مفاخر جليلة يجب أن نذكرها بالفخار ، وأن نحيي من أجلها علماءنا الأعلام الخالدين ، من أسلافنا الذى حملوا لواء المعرفة ، ورفعوا راية الحضارة والثقافة ، وأخذوا بأيديهم مشاعل النور ليهدوا بها الإنسانية فى ظلام العصور الوسطى .

إن العلماء المسلمين قد سطروا فى شتى مناحى المعرفة صفحات خالدة من المجد والعظمة والكفاح الذهنى والإنسانى ، وهم من أجل ذلك خليقون أن تذكرهم الأجيال ، وأن نعرف لهم فضلهم ، وأن نمجد مواهبهم الأصيلة .

الاسلام حامى الحريات

يا أيها الذين آمنوا ادخلوا
في السلم كافة ـ البقرة ٢٠٨
الظلم ظلمات يوم القيامة .
حديث شريف

— ١ —

كانت الإنسانية قبل بزوغ فجر الإسلام تتعثر بين وحشية ضارية، وهمجية ضالة، واستبداد مروع، ومذاهب وعقائد باطلة، وتقاليد وعادات بالية، وكان الجهل والجمود والاضطهاد والاستعباد واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان سنة الحياة، فحيثما وليت وجهك فثم الطغاة المستبدون، والرؤساء الذين لايؤمنون بحق الشعوب في الأمن والحرية والحياة، والأباطرة الذين يعيثون في الأرض فساداً بالغزو والنهب والاستعمار.

في جانب امبراطورية الفرس بعقائدها الوثنية، ونظمها الإستعمارية، وسياستها المتعسفة، وحكامها المتجبرين. وفي الجانب الآخر امبراطورية الروم الشرقية تثير الرعب والفزع في الأرض، وتنشر الفساد بين الناس والحرب مستمرة مستعرة بين الجانبين، يصطلى بجحيمها الرعايا الحائرون المفزعون . . فإذا تنقلت في الأرض وجدت في كل مكان وقطر الشقاء والخوف والفقر والظلم والطغيان . . ولم تجد حكمة

الحكماء ولا فلسفة الفلاسفة شيئاً ، لأن الحكم كان للشهوة ، والسيادة كانت للضلال ، والحق كان للقوة ، والرأى لم يكن يستمع إليه إلا إذا صدر من رئيس أو حاكم .

ولقد كان أرسطو وأفلاطون يقرران حرمان العمال والصناع من حقوقهم المدنية ، وكان الساسة والمفكرون فى روما يؤمنون بسيادة أمتهم ، وأن من الواجب عليهم إخضاع الدول لجبروتهم وحكمهم بالعنف والقوة ، وكان المشرعون فى أثينا ينظرون إلى الرقيق نظرتهم إلى الحيوانات العجماء ، وكانت المرأة تعيش مسلوبة الإرادة والحرية والاختيار فى كل مكان .

ورغم انتقال الإنسانية من مرحلة الوحشية إلى مرحلة البربرية ، ثم إلى مرحلة الحضارة ثم إلى عصور الرق والإقطاع ، ورغم الديانات والشرائع السماوية والكتب الإلهية المنزلة ، فإن الحياة ظلت كما هى لا تتبدل ، والظلام ظل كثيفاً كما كان ؛ والذى بدل وغير وحرف إنما هو الحق وشرائع السماء .

فى هذا الجو الخانق ، والغيوم المكفهرة ، والضلالات والأباطيل والوثنيات ، أرسل محمد صلوات الله عليه ، وأمر أن يبشر الناس كافة بالإسلام ، وأنزل عليه القرآن الكريم هدى ونوراً ورحمة ، فأخذ يذيع الدعوة ويتلو الكتاب ويدعو إلى الحرية والسلام والمساواة ، ويسفه آراء الوثنية والشرك والبهتان ، ويحارب الاستعباد والاستعمار واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان ، ويأمر بكل ما هو

حق وخير وعدل ، ويناهض الأقيال المتجبرين والسادة المتكبرين والرؤساء المستبدين ، وينادى بحق العامل والفقير والمحروم والرقيق والمرأة ، ويحرم السلب والنهب واللصوصية والربا وأكل مال الناس بالباطل والفساد ، ويؤاخى بين الناس ، ويحبب فى التعاون والمحبة ، ويحطم العصبيات وحمية الجاهلية الأولى ويلغى الفوارق بين الشعوب والجماعات . .

وتألب دعاة الوثنية والباطل على الدعوة الجديدة يحاولون وأدها بقوة السلاح ، فانتصر عليهم محمد وأنصاره فى بدر . وفتحت مكة فدان العرب للإسلام ، وعرفوا أن لا طاقة لهم بحرب الرسول وعداوته ، وكثرت الوفود فى السنة التاسعة للهجرة ، وبعث محمد صلوات الله عليه رسله إلى ملوك الأرض يدعوهم لدين الله . فسار دحية الكلبي بكتاب إلى عظيم بصرى ليسلمه إلى هرقل قيصر . وسار عبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى ؛ وعمرو بن أمية إلى النجاشى . وحاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس حاكم الإسكندرية . والعلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين . وشجاع بن وهب الأسدى إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى . والمهاجر بن أبى أمية إلى الحارث ملك اليمن .

ثم مات محمد بعد أن أدى رسالة الله ورفع راية الإسلام فى الأرض وبلغ القرآن الكريم إلى الدنيا . وبذر غرس الحرية والسلام والإخاء والمساواة بين الناس . وأقام حكما صالحاً لا يمحى

من الأرض ، وجمع الأجناس والعناصر والألوان والشعوب فى ظل دولة ائتمرت بأمرها الحياة والوجود .

وكان خلفاء محمد مثلا عالياً فى احترام الحقوق والحريات وحمايتها والدفاع عنها ، أذاعوا كلمة الله والحق والهدى بين الأمم كافة ، ووضعوا أصول حضارة زاهرة باهرة عاش العالم فى ظلالها أجيالا مديدة .

— ٢ —

وفى القرآن الكريم دعوات عالية ، وأحكام مثلى لتخليص الإنسانية من الظلم والاستبداد والطغيان ، إذ يقول الله تعالى فى كتابه الحكيم : « قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » ، ويصور السادة الطغاة المفسدين فى الأرض تصويراً صادقا فيقول : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، ويشهد الله على مافى قلبه ، وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل ، والله لايحب الفساد ، « وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم ، فحسبه جهنم ولبئس المهاد » ، ويدعو إلى أخوة الجماعات الإنسانية لتعيش فى ظلال السلام والوئام ، فيقول : « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ،

إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » ، ويؤكد أخوة المؤمنين فيقول : « إنما المؤمنون إخوة » ، ويطالب بالوفاء بالعهد واحترام الحقوق والجنوح إلى السلام ، إلا إذا نكث غير المسلمين فى عهدهم فيقاتلون ويشردون فى الأرض : « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر ، إنهم لا أيمان لهم ، لعلهم ينتهون » . . ولم يحارب الرسول اليهود فى خيبر وغيرها إلا لأنهم خانوا عهده ، وأرادوا قتله ، وحزبوا الأحزاب عليه .

وكان الرسول صلوات الله عليه مثلا أعلى فى المحافظة على حريات الناس وحمايتها ، وكان يأمر عماله باحترام حقوق الناس فى الحياة والأمن والكرامة ، ولو كانوا مخالفين لهم فى الدين ، حتى قال صلوات الله عليه : « من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة » .

وكان عمر بن الخطاب يأمر عماله أن يوافوه بالموسم ، فإذا اجتمعوا قال : أيها الناس إنى لم أبعث عمالى عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم ، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم ، وليقسموا فيئكم بينكم ؛ فمن فعل به غير ذلك فليقم .

وكان يقول : من ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له على إلا أن يرفعها إلى حتى أقصه منه .

وقال لعمرو بن العاص واليه على مصر : « متى تستعبدون

الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » .

وكان يوصى ولاته على الأمم بالعدل بين الناس ، واحترام حقوقهم وحرياتهم .

وخطب مرة فقال : « اعطوا الحق من أنفسكم ، ولا يحمل بعضكم بعضا على أن تحاكموا إلى ، فإنه ليس بينى وبين أحد من الناس هوادة » .

ولطم جبلة بن الأيهم ملك غسان رجلا من المسلمين فى الحج لأنه داس على إزاره . فشكا الرجل إلى عمر ، فطلب عمر القصاص من جبلة ، فقال جبلة : كيف ذاك وأنا ملك وهو سوقة ؟ فقال : إن الإسلام جمعكما وسوى بين الملك والسوقة ، ففر جبلة والتحق بالروم .

وكان عمر بن عبد العزيز يبطل أحكام ولاته إذا رأى فيها ظلما للشعوب المحكومة ، خاصم عجم أهل دمشق إليه فى كنيسة كانت أخذت منهم ، فأخرجها عن المسلمين ، وردها إلى النصارى .

وشكا نصارى دمشق أن الوليد هدم كنيسة يوحنا وأدخلها فى المسجد فهم أن يعيدها إليهم لولا أن المسلمين صالحوهم .

وكتب إليه عامله على العراق : إن الناس قد كثروا فى الإسلام حتى خفت أن يقل الخراج ، فكتب إليه : والله لوددت أن الناس كلهم اسلموا حتى نكون وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا .

وكان ينوى أن يستدعى المسلمين من أرض الروم ، وأن يجلى العرب من الأندلس ، وكتب إلى عامله يأمره بإعادة من وراء النهر من المسلمين فأبوا ، وكتب إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الإسلام على أن يظلوا ملوكا ،

ولهم ما للمسلمين ، فأسلموا ؛ وكتب إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى دين الله فأسلم بعضهم .

ووفد عليه قوم من سمرقند فشكوا إليه أن ابن قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين ، على غدر ، فحكم عمر قاضيا ، فحكم القاضى بإخراج المسلمين . . . إلى غير ذلك من احترام الحرية ، وحب العدل ، والعمل بشريعة الله .

— ٣ —

إن المسلمين لم يفتحوا البلاد للاستعمار والسيادة ، والغزو والنهب ، فقد رأيتم كيف كانوا يعاملون غيرهم ، ويحترمون حقوقهم ، ويحافظون على حرياتهم . وإنما دخلوا هذه البلاد هادين ، ودعاة مرشدين ، يقيمون العدل ، ويضعون الموازين القسط بين الناس ، ويحاربون الوثنية ، ويحطمون الضلال . . وكانت أمم كثيرة ترسل إلى قواد المسلمين ، ليدخلوا بلادهم ، وينقذوهم من الظلم والاستعباد والشقاء .

وكتب عامل لعمر بن عبد العزيز على خراسان : إنه لا يصلح لهذه البلاد إلا السيف ، فأنكر عمر عليه ذلك وعزله .

وكانت البلاد التى يحكمها المسلمون مثلا فى النظام والأمن وانتشار العدالة والرخاء والرفاهية وحرية الفكر والعقيدة والرأى . . ولم يكن المسلمون يمسون مرافقها الاقتصادية أدنى مس . . فأين هذا من استعمار اليوم ؛ الذى يحجر على الحريات ، ويعصف بالحقوق ، ويضيع

الحرمات وينهب أموال الأمة بطرق مباشرة وغير مباشرة ، ويحاربها في قوميتها ودينها وأخلاقها ؟

— ٤ —

الإسلام هو حامى الحريات فى كل مكان ، وشرائعه أعظم ضمان لحق الناس فى الطمأنينة والإنصاف والمساواة والحياة .

وهو يحرم الحرب ولا يبيحها إلا دفاعا عن دين الله ، بل إنه ينهى عنها ولو كانت بقصد نشر الدين ، ويحبب فى السلام والمحبة والتعاون والوئام .

وهذا الاستعمار الغربى الحديث إن هو إلا لصوصية ونهب وفساد، وقتل للشعوب ، وإفناء للجماعات ، وحرب على السلام ، وإجاعة للناس، وبسط للنفوذ والسلطان على حساب الضعفاء . . . وهذا كله هو مالا يعرفه الإسلام ، بل إنه ليحاربه ، ويطالب بتحطيم كل من يعمل له أو يساعد على نشره .

والمسلمون لهم العزة والكرامة والسيادة فى الأرض ، وهم الذين نصبهم الله حماة لشريعته ، وأهلا لخلافته ، وأحقاء بكرامته ، ولم يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ، فهم أجدر الناس بحياة الحرية والكرامة.

لقد أنهى الإسلام عهد الاستعمار البغيض من الدنيا ولم يعد هذا الاستعمار إلى الحياة إلا بعد أن خالف المسلمون شريعة الله .

إن الإسلام يؤيد الحرية ويدافع عنها ، ويقف حاميا لحريات الأمم والجماعات والأفراد والألوان والأجناس ويدعو المسلمين إلى أن ينظروا لدعوة الحرية فى الأرض .

الإسلام يكفل الحريات العامة

لم تستعبدون الناس وقد
ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟
ـ عمر بن الخطاب ـ

أمر كفالة الإسلام للحريات العامة للفرد مشهور مأثور ، لا نفيض فى الحديث عنه فى هذا المقام .

لم يضع الإسلام حدودا تفصل بين بنى البشر ، أو تحول دون تفاهم أبناء الإنسان ، فكان الناس يجولون فى بلاد العالم الإسلامى ، من كل عنصر وجنس وملة ، دون قيد أو حجر أو صعوبة فى الانتقال ؛ أحرارا فى تنقلاتهم من مكان إلى مكان .

ونهى عن تتبع عورات الإنسان ، والتجسس عليه ، ودخول منزله إلا بإذن منه ؛ وفرض حرمة المسكن ، وحرمة العرض ، وحرمة الدم ، وحرمة المال ، وحرمة الملكية ، وحرم التدخل فى شئونه الخاصة أو شئون أسرته ، وفرض حماية الجار واللائذ والمستعيذ والمضطهد . . . ولم يعترف بالعنصرية ولا بالجنسية ، بل جعل الناس إخوة فى الانسانية وفى الله وفى الإسلام .

وجعل لكل إنسان حق التملك ، وحرم أن يحرمه أحد من ملكه تعسفا وظلما .

وأوجب حق الفرد في حرية الفكر ، والضمير ، وحرية الرأى والتعبير ، وحرية الاجتماع .

وجعل له الحق المطلق فى أن يصل بكفايته إلى أعلى المناصب فى الدولة ، دون نظر إلى جنسه ولونه .

ومنحه كافة الحقوق الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التى لا تستغنى عنها كرامته ولا شخصيته فى نموها المطلق .

وأطلق حرية الإنسان المطلقة فى كل ناحية ، وكل مرفق .

وقرر جميع الحريات العامة له وفرضها ، وألزم الدولة بالدفاع عنها .

وأباح للمسلم أن يتزوج من أهل الكتاب ، وسوغ مؤاكلتهم وإن أوصى بالرفق فى معاملتهم ومجادلتهم ، كما أخذ العهد على المسلمين أن يدافعوا عمن يدخل فى ذمتهم من غيرهم ، كما يدافعون عن أنفسهم. ونص على أن لهم مالنا وعليهم ما علينا ، ونهى عن كل إكراه فى الدين ؛ وطيب قلوب المؤمنين فى قوله « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » ، فعليهم الدعوة إلى الخير بالتى هى أحسن ، وليس لهم ولا عليهم أن يستعملوا أى قوة فى الحمل على الإسلام ، فإن نوره جدير أن ينفذ إلى القلوب والأرواح والنفوس .

الاسلام دين السلام والحرية

كيف تستعبدون الناس وقد
ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟
عمر بن الخطاب

— ١ —

السلام هو المدنية والحضارة ، والحرب هي الدمار والخراب ، والسلام هو أهم عامل يساعد الإنسان فى الحياة على التقدم ، والحرب أفظع ما شهده الإنسان وخاصة فى العصر الحديث الذى كشف القنبلة الذرية وسواها من وسائل الافناء .

ولقد دعا الإسلام إلى السلام ، وحث عليه ، أوجب السلام فى المجتمع ، كما أوجبه بين الأمم والشعوب ، وحمل المسلمون رسالة السلام إلى الأمم والشعوب ، وبشروا بها الإنسانية داعين إلى الرحمة والمحبة والتعاون والخير العام .

والمؤمنون بالحرية هم أكثر الناس إيمانا بالسلام ، لأنه سبيل الطمأنينة والكرامة الإنسانية . وليس يقدره إلا من قدر الحرية وأحبها ، وعرف أنها سبب العزة ، والتجديد والأمل .

— ٢ —

وما أروع مواقف محمد فى الدفاع عن هذه المبادىء الكريمة ، وما أبقى على وجه الزمن دعوته إلى الأمن والوئام والشمم والإباء .

ومع أنه ولد فى أرض خضبتها الدماء ، فقد كان بطل السلام ، وداعيته الكريم ، حتى رأيناه يشترك صغيراً فى حلف الفضول ، الذى قام لنصرة المظلوم ، ورد الحقوق إلى أصحابها . ورأيناه يقف حكما بين قبائل قريش ، حاسما للنزاع الذى نشب حول بناء الكعبة ، وأيها يكون له شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه ، فيسود السلام مكة برأيه وحكمته .

كانت سياسته صلوات الله عليه اللين والشفقة والتواضع ؛ وتحيته : « السلام عليكم ورحمة الله » . . ولقد عاش مؤمنا بالرحمة والمحبة والتعاون والإخاء ، فآخى بين المسلمين فى المدينة ، وقرر أن المؤمنين إخوة فى الدين وأن البشر جميعا إخوة فى الإنسانية ، وألغى الحواجز والفواصل بين الأمم ونزل القرآن يؤكد أن هدفه تعارف الشعوب « وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » .

وكان السلام النفسى شعاره فى أحرج الأزمات ، أرأيته حين طاردها المشركون فى « الطائف » كيف يلجأ إلى ظل يستظل به ويتوجه إلى ربه : اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى .

لم يمش محمد إلى الحرب إلا دفعا للعدان ودفاعا عن المظلومين ، وتأكيداً للسلام والحرية حتى وقف وهو حدث السن يذود عن حرية

قومه فى حرب الفجار . وحرم شن الحرب للسيطرة وبسط السلطان ، أو للفساد والاستغلال والطغيان ، ولم يجعلها وسيلة لنشر الدين ، بل اتخذ سبيله الاقناع والبرهان « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن » .

وشريعة محمد التى نزلت عليه وهى الإسلام . اشتق اسمها من السلام وغايتها اليسر والسهولة والتخفيف على الناس . ويلخصها لقومه فى كلمة واحدة حين مشى أشراف قريش إلى عمه أبى طالب يشكون ويضجون . فقال له : « يا عم : كلمة واحدة يعطونيها . تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم » ، فقال أبو جهل : نعم وأبيك وعشر كلمات . فقال : « تقولون لا إله إلا الله » ، وتخلعون ما تعبدون من دونه . فسخروا منه وقالوا : أتريد أن تجعل الآلهة إلها واحدا . إن هذا الشىء عجاب .

— ٣ —

هذا هو محمد المبشر بالسلام والمشرع لمبادئه فى الأسرة والمجتمع والأمة والإنسانية وبين الانسان ونفسه . أما محمد المدافع عن الحريات فان أمره لعجب . أحب الحرية منذ طفولته . ورثها عن قومه وبيئته ورباه الله عليها ونماها فى نفسه طبيعة الحياة فى وطنه . فولد ونشأ كريما أبيا . وفتى حرا عربيا . ويتجلى تقديسه لها فى إبائه للضيم . وغضبه للحق ، وإسراعه لنصفة الضعيف . وفرضه الدفاع عن الوطن . ومقاومة المعتدين والغاصبين . وزياده عن شخصية الإنسان

وحقوق المستضعفين الذين كان الناس فى عصره ينكرون أن يكون لهم حق فى الحياة ، كان إذا جلس فى المسجد لجلس اليه خباب وعمار وبلال ويسار وصهيب وأشباههم هزأت بهم قريش ، وقالوا : هؤلاء أصحابه كما ترون ، أهؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق ؟ لوكان ماجاء به خيرا ما سبقونا اليه ، ولو طردهم عنه لجلسنا اليه ، فأنزل الله تعالى ، ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ، يريدون وجهه » .

وقرر محمد ، وحمى الحرية الشخصية ، وحرية الملك والمسكن والعمل والقول والاجتماع والفكر والعقيدة ، ووصاياه فى رعاية حريات الناس والجماعات والأمم وتهذيبه للضمير الإنسانى ليراقب سلوك صاحبه حتى لايظلم أو يعتدى على أحـد مضرب الأمثال . وجاءت معاهدته الأولى مع يهود يثرب المخالفين له خير تقرير لحرية العقيدة والرأى وحرمة المدينة والمال كما يقرر الباحثون .

حمى محمد حرية المرأة والرجل والعامل والخادم والرقيق ، وألغى الرق البشرى ، وأبقى أسرى الحروب المشروعة فى نطاق واسع من الشرف والكرامة ، وحرر هو وخلفاؤه الأمم من العبودية والاستكانة ، وطالب الطغاة بأن يطلقوا لرعاياهم المروعين حريتهم كما طالب المستضعفين بأن ينفروا من الذلة والهوان فقال : « من أعطى الذلة من نفسه طائعاً غير مكره فليس منى » ، وحرم الاستبداد والاستعمار واستغلال الشعوب وهدم العصبيات والامتيازات

الطائفية والعنصرية ، « فالناس سواء كأسنان المشط ، لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر ، إلا بالتقوى والعمل الصالح » . وليس هناك شعب له حقوق فى السيادة أو الوصاية على غيره من الناس .

— ٤ —

هذا هو محمد الداعى إلى السلم والحرية ، والذى لم يلبس مسوح السلام ليخدع النـــاس أو ليغرر بالشعوب ، والذى حطم الشرك والوثنية ، وهدم عرش الطغيان والجبروت ، والذى دعا إلى عالم واحد ، وحكومة واحدة ، تؤمن بأكرم الأهداف ؛ وتخضع لأسمى المبادىء وتطبقها ؛ والذى نفخ فى أرواح المستعبدين : أن هبوا ، فهـذا عصر جديد من الحرية والكرامة ليس هناك سيد ومسود ، إنما السيادة لله ولرسوله ولمبادىء الحق والعدالة والمساواة .

الاسلام محرر الانسان

فلا اقتحم العقبة ، وما
أدراك ما العقبة ، فك رقبة .
١١ - ١٣ سورة البلد

— ١ —

كان الرق ذائعا قبل الرسالة المحمدية فى كل مكان ، وكانت أسبابه متعددة كثيرة ، فهناك أسرى الحرب الأرقاء ، والأرقاء بالسبي والخطف واللصوصية ، والأرقاء بسبب إجرامهم ، والرق بسبب الدين والرقيق بالوراثة . وكان يجوز للانسان أن يبيع نفسه وأولاده على أنهم أرقاء ، وكان بعض الأغنياء يعدون الفلاحين فى مزارعهم رقيقا مملوكا لهم ، وبعض المجتمعات تعد المرأة فى منزلة الرجل المملوك .

وقد ظهر الاسترقاق منذ العصور القديمة ، وألفه بكثرة المصريون القدامى والبابليون والبراهمة والفرس واليونان والرومان . وأقره أفلاطون وأرسطو الذى ذهب إلى أن أرواحهم كأرواح الحيوانات غير مخلدة .

واعتبرته الديانة المسيحية شرعيا ، واستمر المسيحيون على تلك الشريعة . وكان الأوربيون يسترقون سكان أمريكا بعد كشفها يعاملونهم أسوأ المعاملة .

— ٢ —

أما الإسلام فقد حرم شتى أنواع الرق ، عدا الرق بسبب الأسر في حرب إسلامية عامة بين المسلمين والمشركين ، وماعدا الرق بسبب الوراثة والتناسل .

ومع ذلك فقد قيد الإسلام بعد ذلك كله نظام الرق ، بقيود شديدة ، فجعل المملوكة بسبب الوراثة يولد ابنها من سيدها حرا إذا ألحقه السيد بنسبه ، وتنال هي حريتها بعد وفاة السيد ؛ وجعل الرق في الحرب قاصرا على الحرب في سبيل الدين ، الحرب التي تحدث بين المسلمين والمشركين أو المسلمين وأهل الكتاب ، الذين يريدون أن يطفئوا نور الله . وهي الحرب التي تكون للدفاع عن الدين من اعتداء معتد أثيم ، أو مكيدة دولة كافرة ، أو للحنث بالعهود والالتزامات ، والتي ينص القرآن الكريم على مشروعيتها بقوله : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله »، « وإن نكثوا إيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم ، فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون » . وجعل للإمام الحاكم الحق في أن يمن على الأسرى ، وفي قبول الفداء .

ثم فتح الإسلام الأبواب للحرية والعتق ، وحث على تحرير الأرقاء بكل طريق وسبيل . . وجعله مغنيا عن كثير من الأخطاء ،

وفرض على الدولة أن تقوم بتحرير الأرقاء من أموال الزكاة. وحث السادة على تحرير عبيدهم إذا كاتبوهم على مال معلوم.

فالإسلام إذن ضيق حدود الرق إلى أبعد حد، وفتح العتق إلى أوسع مدى، وحث السادة على عتق عبيدهم تقربا لله أو نظير مال يكاتبونهم عليه أو تكفيرا عن بعض السيئات، وجعل الدولة قوامة على تحرير الرقاب بسهم مما يجبى من أموال الزكاة.

فأى شيء يعمله الإسلام أكثر من ذلك، أيحرم الرق جملة؟ كلا فإن من يصد الناس عن عقيدتك ودينك، ويؤلب عليك القوى، ويحاربك بالسلاح، جزاؤه أن تضمه إليك، لتحول بينه وبين الشر، ولتؤدبه وترعاه وتوجهه إلى الهدى.

ومع ذلك فقد أوجب الإسلام على المسلمين حسن معاملة الرقيق وتأديبه وتربيته وتهذيبه، وجعله عضوا صالحا فى الحياة، وأن لا يكلف السيد عبده بما لا يستطيع، وأن يعطيه مما يأكل، ويلبسه مما يلبس، وأن يحفظ كرامته. قال رسول الله: لا يقل أحدكم: أمتى، وليقل: فتاى وغلامى، وقال: من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار.

وقد صعد كثير من العبيد فى الإسلام إلى منزلة لا يبلغها أحد، فوصلوا إلى قيادة الجيوش، وسياسة الدولة، وتبوءوا أمور الملك والولاية. بل إن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، كان إذا سار هو

وعبده تعاقبا على ركوب الناقة ، وعندما ذهب عمر إلى بيت المقدس ليبرم الصلح مع أهلها ، ركب عمر مرة ، وركب عبده مرة ، أثناء الطريق ، حتى لقد بلغ عمر المدينة وغلامه على الدابة ، وعمر الخليفة يسعى بين يديه .

ويقول رسول الله : « اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم » ، « اتقوا الله فى الضعيفين : المملوك والمرأة » ، « من كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس » ، « من كانت له جارية فعلمها وأحسن اليها وتزوجها ، كان له أجران فى الحياة الدنيا والآخرة : أجر بالنكاح والتعليم ، وأجر بالعتق .

وعن أبى مسعود قال : بينما أنا أضرب غلاما لى إذ سمعت صوتا من خلفى : أعلم يا أبامسعود - مرتين - فالتفت ، فاذا رسول الله ، فألقيت السوط من يدى فقال ، « والله لله أبر عليك منك على هذا » ..

إن الإسلام قضى على الرق قضاء إلى حد بعيد ، فما ظنكم بامم الغرب اليوم التى تعامل بعض الطبقات معاملة أدنى من معاملة العبيد . فأمريكا موقفها من الزنوج الحمر معروف ، وعداؤها لهم بسبب اللون مشهور ، حتى لتحرم عليهم الوظائف العامة والتعليم ، وتنزلهم إلى درك الحيوانات .. وأسرى الحرب العالمية الثانية لايزالون يهيمون على وجوههم فى سهول سيبريا وسواها من شتى بلاد الإتحاد

السوفييتى عمالا أرقاء للدولة . بل وفى الهند طبقات المنبوذين ، الذين لا يعاملون معاملة الرقيق فى الإسلام .

فأين هذا من عدل الإسلام وسماحته ، ودعوته للاخاء الحق ، والمساواة الصحيحة ، والحرية الكاملة .

بل إن الغرب قد حرم رق فرد ، وأباح استعباد أمة ، وأطلق حرية الإنسان ، وقتل حريات كثير من الشعوب ، وحرم نهب مال المواطن ، وأباح لنفسه أن ينهب ثروات المستعمرات الواسعة . وقضى على أسواق الرقيق فى إفريقيا ، ولكنه حجر على رجال الفكر والعلم والاختراع من شباب الألمان ، الذين أسرهم فى الحرب العالمية الثانية ، وجندهم مأسورين مساقين لخدمة المرافق العامة فى روسيا وانجلترا وأمريكا وفرنسا ، بل ألقى عليهم أشد التبعات والأهوال والأعمال ، خلال الحرب وبعدها .

شريعة الكفاح والحياة

وجاهدوا فى الله حق
جهـــاده ، هو اجتباكم
٨٧ الحج

عزل الاستعمار العالم الإسلامى عن ثقافة الإسلام ، وتقاليده الصالحة ؛ وعن روحيته الصافية ، وعن تطبيق أحكام الشريعة الاسلامية التقدمية فى بلاده أكثر من قرن من الزمان ، كان للاستعمار فيه السيادة وحق التشريع وشتى الحقوق المدنية والسياسية فى بلاد المسلمين ، وكان لابد أن يتأثر المجتمع الاسلامى تأثرا ما بما يحاول الاستعمار نشره من أفكار وسموم فى وسط هذا المجتمع ، حوربت الثقافة الإسلامية القومية ، وأخذ الاستعمار الغربى يذيع فى بلادنا على أيدى بعض أعوانه وأنصاره من المأجورين والخونة أن لاغنى للرجل المتحضر عن ثقافة الغرب ، وأن الإسلام دين رجعى تمثله ليالى « ألف ليلة وليلة » ، وحياة مجتمعات « ألف ليلة وليلة » ، وهو لايصلح للحياة فى القرن العشرين ، وقال كرومر الحاكم الاستعمارى الذى فرضه الاستعمار على مصر فى أول القرن العشرين : « إن المصرى المثقف فى الأزهر عقبة فى طريق الاستعمار ومن ثم فقد أبعدناه عن طريقنا ، وتحيناه عن الحكم ، فلا بد للرجل السياسى الذى يصلح للحكم من أن تكون ثقافته غربية » ، وطبق كرومر وخلفاؤه هذا المبدأ

وأبعد رجل الأزهر عن الحكم لأنه يمثل قومية المسلمين ويهتم بهذه القومية ولا يضحى بها لأى اعتبار ، ولأنه لا يقبل التفاهم مع الاستعمار ضد بلاده وقوميته ، ومن ثم دار الحكم فى مصر منذ عام ١٩٠٠ حتى عام ١٩٥٢ على رجال يعدون نصف مسلمين ، هم مسلمون بأفواههم ولكنهم عملاء للاستعمار ، ومأجورون للوكالات الأجنبية وللشركات الاستعمارية فى بلاد المسلمين .

وهكذا أخذ رجل الدين يضيق عليه فى الحياة ، ويقتر عليه فى الرزق ويحال بينه وبين رفيع المناصب ، ويحـال بينه وبين تأدية رسالته فى الأمة ، وواجبه فى المجتمع . . ثم نشأت طبقات مثقفة بثقافات الاستعمار المادية الالحادية ، تقول : إن الاسلام رجعى ، وتفاقم الأمر ، حتى آل إلى إنكار بعض هؤلاء للأديان ولوجود الله ولفكرة الدين .

إن هؤلاء القطيع الضال فى المجتمع الاسلامى ما هم إلا جماعات من المأفونين والماجنين وعملاء الاستعمار ، ممن لا هم لهم إلا التمتع بالشهوات واللذائذ على حساب الفضائل والضمير والواجب والحق والخير ، بل حتى على حســاب أنفسهم وأعراضهم وشرف رجولتهم ، وهم وإن مكن لهم فى الأرض ، ـ كما يمكن للشر دائما ـ بالمناصب والمال والجاه ووسائل الدعاية ، مخذولون مدحورون بإذن الله .

إن الديمقراطية ، هى التى طردت المسلمين من فلسطين ، وهى

التى تبيد الشعب العربى المسلم فى الجزائر وفى كل مكان توجد فيه قوات أجنبية مسلحة من بلاد المسلمين ، وهى التى استعمرت بلاد الإسلام قرونا وأجيالا طوالا .

وليست الشيوعية بأقل خطرا على العالم الإسلامى كذلك ، فهى تتظاهر بالصداقة والحنان لنا ، لتخدعنا ولتدع مبادئها تتسرب إلى ضمائرنا ، ولتكسب بعد ذلك مناطق نفوذ جديدة لها .

ولكن العمـــلاق الجبار لايمكن أن يعود إلى العبودية مرة أخرى ، إنه انطلق من القمقم انطلاق المارد القاهر ، ولن يخدع عن عن حريته وكرامته وعروبته ودينه الإسلامى أبدا بإذن الله .

إن الاسلام الذى يتصوره دعاة الاستعمار دينا رجعيا باليا يصلح للتطبيق فى مجتمع اليوم ، هو الذى نشر الحرية والاخاء والمساواة والعلم والمدنية أربعة عشر قرنا من الزمان ، هو الذى حارب الفقر والمرض والجهل ، ورفع كرامة الإنسان وخاصة العامل والمرأة والخادم ، وحرر العقل من إسار الأوهام والشرك والعبودية ، ونادى بالشورى والعدالة والتكافل الاجتماعى ، وباستقلال القضاء ، وبمجانية التعليم ومحو الأمية ، ورفع مستوى الحياة للطبقات الفقيرة والمحرومة ، ودعا إلى الضمان الاجتماعى ، وإلى حفظ كرامة الفقير ، وإلى العدالة الاجتماعية فى أوسع صورها ، وإلى كل ما هو حق وجميل من شؤن الفكر والحياة . وقدس حق العمل وصانه صيانة تامة .

إن الاسلام أعظم دين عالمى إنسانى صالح للتطبيق فى كل بيئة وكل زمان ، إنه أعظم تقدمية من اشتراكية روسيا ، وأكثر ديمقراطية وإنسانية من رأسمالية أمريكا ؛ إنه لا يعجز عن حل مشكلات الفرد والجماعة والأمم التى عجزت عن حلها القوانين الموضوعة ، والدساتير المصنوعة والشرائع المحرفة ، إنه دعوة إنسانية عالية .

إن الاسلام هو أعظم الأديان وخاتمتها ، وهو التنظيم الإلهى الكامل لشؤون الحياة والجماعات والأفراد ، هو يعنى بالدنيا عنايته بالآخرة ، وهو ليس رهبانية تحجم عن خوض مشكلات الحياة ، وليس طقوسا كالطقوس التى تقام فى المعابد والكنائس ، وليس عبودية لزعيم أو حاكم أو ذى سلطان ، إنه دين الحيـــاة والحرية والمثل العليا ، والفضائل النبيلة ، إنه المجد والعزة والكرامة والعمل ، والشورى والديمقراطية والايمان بكل ماهو حق وجميل وخير فى الحياة .

إنه كما يقول بعض الباحثين من علمائنا : نظام الحياة الحرة القوية الكريمة ، وغايته بناء إنسان صالح يكون عمادا لمجتمع صالح .

وقد جاء فى كتاب «اتجاه الاسلام» لناشره الاستاذ جب المستشرق الانجليزى ماياتى : لخص الأستاذ مسينيون أدب الإسلام تلخيصا يثير الاعجاب فى قوله : يمتاز الإسلام بأنه يمثل فكرة مساواة صحيحة بمساهمة كل أفراد الشعب بالعشر فى موارد الجماعة (الزكاة) .

ومبادىء الإسلام تبذل التبادل غـــير المقيد ، كما تناوىء بالعداء الأموال المصرفية (الربا) والقروض الحكومية والضرائب غير المباشرة على ضروريات الحياة ، فى حين أنه شديد التمسك بحقوق الولد والزوج والملكية ورؤوس الأموال التجارية ، فهو بذلك يقف موقفا وسطا بين البورجوازية والرأسمالية والشيوعية (البلشفية) . والإسلام كذلك كم قام بخدمات أخرى أسداها للانسانية ، وهو إلى الشرق الحقيقى أقرب من أوربا إليه . وله ماض بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها . وليس هناك مجتمع آخر له مثل ما للإسلام من ماض كله نجاح فى جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة فى الحقوق والواجبات . ولقد برهنت الطوائف الإسلامية الكبرى فى أفريقيا والهند والهند الشرقية ، والجماعات الصغيرة منهم فى الصين واليابان ، على أن الإسلام يستطيع أن يوفق بين العناصر التى لاسبيل إلى التوفيق بينها ، وإذا ما أريد احلال التعاون محل الخلاف بين المجتمعات فى الشرق والغرب ، فان وساطة الاسلام ضرورية لاغنى عنها . فهو وحده الكفيل بحل المشكلة التى تواجه أوربا فى علاقاتها مع الشرق . فاذا اتحدا عظم الأمل فى أن تكون النتيجة سلاما ، أما إن رفضت أوروبا معاونة الاسلام وألقت بنفسها فى أحضان خصومه ، فان العاقبة لا يمكن أن تكون إلا نكبة لهما معا »(١) .

(١) النكبة لأوربا لا للاسلام الذى هو أقرب المبادىء إلى فطرة الانسان فى الشرق والغرب على السواء .

ماذا جنى المسلمون من تقليدهم للغرب ؟ وعزوفهم عن ثقافتهم القومية الأصيلة ، وعن مبادىء دينهم الحنيف ؟ إنهم لم يجنوا إلا الخسار والهلاك وفقدان الضمير ، وشيوع الجشع والطمع والنهب والجريمة والرشوة والفساد ، إنهم أضاعوا الدين لأنهم تركوه وراءهم ظهريا ، وأضاعوا الدنيا لأنهم لا يملكون من أسبابها ما يملك الغرب ودول الاستعمار ، وقد كان تمسكهم بدينهم يجلب إليهم الدنيا لو كانوا يعلمون .

مشكلة واحدة أوجز فى عرضها لنتبين الفرق بين روح الإسلام وروح التشريعات الموضوعة فى علاجها ، ولتكن هذه المشكلة هى « حق تكوين الأسرة » .

إن ديننا يوجب على الرجل القادر على الكسب والعمل الزواج ، لأن هذا الزواج أولا هو استجابة لطبيعة الانسان ، وهو ثانيا حماية للمجتمع وإعزاز لكرامة المرأة ومحافظة على الأعراض ، وهو ثالثا الطريق إلى تكوين أسرة تنمى المجتمع وتخدم الأمة وتنهض بالتبعات الإنسانية فى سبيل تأسيس كيان الدولة ودعمها . وديننا يوجب الزواج بمجرد البلوغ ، ويجعله شريعة مؤكدة إذا خاف الشاب على نفسه الوقوع فى جريمة الزنا الذى حرمه الإسلام تحريما باتا صيانة للأعراض والحرمات والكرمات ولشرف الأسرة المسلمة . فالاسلام إذن يحل مشكلات الزواج حلا حاسما باتا ، ويجعل المعاونة

على إتمام الزواج حلا حاسما باتا ويجعل المعاونة على إتمام الزواج واستكمال شخصية الأسرة والظفر بحق تكوين الأسرة واجبا على كل قادر من أبناء المسلمين ، وعلى خزانة الدولة نفسها التى تمثل بيت المال فى الإسلام . فواجب عليك أن تساعد ابنك أو أخاك أو قريبك أو صديقك بجهدك وبما لك وبكل ما تستطيع فى سبيل أن يصبح قادراً على تكوين الأسرة ، والدولة نفسها واجب عليها ذلك إما بإعانة الشارع فى الزواج والساعى فيه ، وإما بتفضيله فى الوظائف ، وإما بترقيته ، وإمابزيادة نصيبه من الاعانات والزيادات (العلاوات) وإما بغير ذلك من الوسائل .

والإسلام يبسط أمر الزواج تبسيطا كاملا ، فالمهر فى رأى الإسلام ليس مشكلة ، إنه هو مايقدر الزوج على دفعه،بما يمثل فكرة الحرص على تكوين الأسرة ، وعلى إعزاز المرأة وتكريمها ، والزواج يتم بإيجاب وقبول بين يدى شاهدين وفى مجلس يستطاع فيه إعلان هذا الزواج تكريما للزوج ولفكرة الارتباط المقدس بين الزوجين ، وتكريما للمرأة .

هذا هو رأى الإسلام فى هذه المشكلة ، فماذا صنع بنا اتباعنا لنظم الغرب وقوانينه فى هذا الموضوع الحيوى ؟ إن القانون المدنى لايجبرك على الزواج ولاعلى تكوين الأسرة ، ثم هويدعك لغرائزك فريسة ، يقضى الرجل حاجته إن أراد عن أى طريق يشاء لاحرج

ولا إثم، مادام ذلك عن اختيار ، فامرأة جارك ، أو فتاة صديقك ، أو أية امرأة ، أو أى .. حلال لك مادمت قد استطعت إغراءها بالمال أو بسوى المال من وسائل الإغراء .

ومن ثم شاع فى المجتمع استباحة الأعراض ، ونشأ عن ذلك تفكك روابط الأسرة ، وكثرة أولاد الزنا ، وهذا مما جعله الرسول الأكرم من علامات قيام الساعة ، كما نشأ عنه حدوث جرائم خلقية شنيعة ، وإضراب الشبان عن الزواج ، اكتفاء بقضاء حاجاتهم عن أية سبيل ، دون الدخول فى تبعات تكوين الأسرة وتربية الأولاد ، إلى غير ذلك من ألوان الفساد .

الإرادة المنتصرة

— ١ —

يشهد العالم الإسلامى كل عام شهرا من أروع الشهور ، وأياما من أمجد الأيام ؛ أياما لا يحسبها الناس من أعمارهم ؛ وشهرا لا يجرون فيه على مألوفهم ، يعيشون فيه وكأنهم فى أعياد متصلة ، وأفراح مكتملة ؛ إنه شهر الثورة والنصر ، والنور والحرية ؛ إنه شهر رمضان المبارك ، الحافل بأعظم الذكريات ، والذى سطرت فيه أكرم الصفحات فى تاريخ الشعوب والمدنية .

وقد فرض الله على المسلمين الصوم فى شهر رمضان ، وندبهم لقيامه ، وللتهجد والتعبد بتلاوة القرآن الكريم فى لياليه المعطرة بأريج الرحمة والخير والبشر والصفاء ؛ وحبب إليهم فيه عمل المعروف وصلة الرحم ، وإكرام الضيف ، والبر بالفقير واليتيم والمسكين ؛ وحثهم على التعاون والمحبة والإخلاص لله فى القول والعمل ، ومراقبته تعالى فى السر والعلن إلى غير ذلك من ألوان الطاعات ، ومن الأعمال الصالحات ، التى فرضها الله على الناس فى هذا الشهر الكريم ؛ والتى ختمها بصدقة الفطر ، بعثا للمحبة فى قلوب المجتمع ؛ ونشرا للسلام بين الناس ، ومواساة للفقراء والمساكين . .

وخص الله عز وجل رمضان بهذه العبادات والطاعات ، كما خصه بليلة القدر التى هى خير من ألف شهر ، تكريما له وتعظيما وتشريفا ، لأ

الشهر الذى أنزل فيه القرآن ، دستور الإسلام والمسلمين الخالد الكريم ؛ على محمد صلى الله عليه وعلى آله وذريته أجمعين ؛ فكان نزوله انتصارا للحق والحرية ، وتحريرا للعقل الإنسانى من الجمود والتقليد وكانت ثورة إنسانية جليلة فى تاريخ البشر أجمعين ، وكان البشير بعهد جديد تظلل الأمم رايته ، وتجمع الناس على الله فى رسالته ، وما أبلغ ما يقول الله عز وجل فى كتابه الحكيم . . . « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس . وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه » .

وهناك ذكرى أخرى خالدة مجيدة ، هى ذكرى غزوة بدر الكبرى التى انتصر فيها الإسلام والمسلمون ، فى السابع عشر من شهر رمضان، من السنة الثانية للهجرة ، وهى ذكرى عزيزة فى قلب كل مسلم وكل عربى، وقد خلد الله ذكرى هذا النصر الكبير ، فذكره فى القرآن الكريم وجعل الشهر الذى حدث فيه كله أعياداً عامة للإسلام والمسلمين .

— ٢ —

ويحل شهر رمضان بالناس ، فتتغير حياتهم ، ويتبدل نظامهم ، وتختلف معيشتهم ، ويجتمع المسلمون كافة فى وحدة قوية متماسكة ، متحدة المشاعر والأعمال والعبادات ، وحدة تستند إلى قومية كريمة عزيزة ، هى قومية المسلمين عامة فى الوطن الإسلامى الحر الأكبر ، تزول فيها الفروق ، وتتلاشى العصبيات ، وينعم الناس جميعا فيها المحبة والسلام .

ويحارب المسلم فى هذا الشهر الكريم نزوات النفس وشهواتها وأهواءها ، ويحارب تمرد الشهوات ، ووسوسة الملذات والمغريات ، ويخرج من هذا الشهر الكريم ، وهو أصلب عودا ، وأقوى إرادة ، وأثبت جنانا ، وأكثر شعورا بحريته وكرامته ، واعتزازا بشخصيته المتحررة من مطالب الحياة المادية وإرهاقها ، وفى ذلك انتصار لإرادته وكرامته ، ما بعده من انتصار . .

— ٣ —

وعندما يجد المسلم نفسه وقد انتصر على نفسه ، انتصر على الجوع والحرمان ، وانتصر على الظمأ والتعب ، وانتصر على الألم ، وعلى ملذات الحياة ، وعلى دواعى الجسم ومطالبه ، عندئذ يشعر بكرامته وإرادته وحريته .

فالطعام وهو غـــذاء الجسم وقوامه لا يصبح سيدا للإنسان ، يستعبده ويفنيه . ومطالب الحياة المادية لا تصير مهيمنة على الرجل تغربه وترديه ، والنظام اليومى للإنسان لا يمسى ديكتاتورا عليه يفقده الشعور بالحرية . كل ذلك يتلاشى طغيانه ، وتخف حدته ، وينطلق الشخص من إسار المادة ، وحبس الجسم ، فتنطلق روحه ، وتقوى ارادته ، ويصير حرا فى كيانه ، وتفكيره ، وفى عمله .

وهذا هو انتصار إرادة الصائم ، وذلك هو تحريره : تحرر فيه معنى الثورة ، وفيه معنى الكرامة ، وفيه بناء لمقومات الإنسان المادية والروحية على السواء .

— ٤ —

فرحبا برمضـــان أبي الحرية ، والداعي إلى العزة والكرامة والطموح ، وإلى الشرف والسمو والجلال ، وإلى كل ما فيه مقومات الفكر الإسلامي وحياته ، وإلى مافيه خير للإسلام والمسلمين والعرب أجمعين .

حقائق وآراء

١ — لماذا نصوم ؟.

نصوم لأن الصوم أحد فرائض الإسلام وأركانه الكبرى أولا، ولأنه يعود المسلم على قوة الإرادة والتحرر من مطالب الحياة المادية ثانيا ، ولأنه يدع الغنى يذوق مرارة الجوع والحرمان ويدرك ما تعانيه الطبقات المحرومة ويربي الصائم على العناية بالفقير والمحروم والبائس والمسكين كمظهر للتكافل الاجتماعي ثالثا ، ولأنه مظهر رائع للوحدة القومية والفكرية والروحية بين المسلمين فى شتى الاقطار الإسلامية رابعا ، ولأنه أحدث علاج طبي لأمراض كثيرة خامسا ، ولأنه وسيلة من وسائل التربية الدينية للشباب الإسلامي وله أهميته فى تقوية الروابط الاجتماعية فى الأمة أخيرا .. وليس المسلمون وحدهم هم الذين يصومون ، إن الصوم مقرر فى جميع الشرائع السماوية .

٢ — هل الصوم يقلل من الانتاج ؟

— قضية يقولها الكثيرون . . وردى عليها أن :

١ — أقوياء الدين والروح والإرادة لا يحول الصوم بينهم وبين استمرار الانتاج ، أما الذين لا يستطيعون العمل فى رمضان وينالهم ضرر من ذلك فالدين يبيح لهم الافطار .

٢ — مطالب الحياة الروحية لا تقل عن مطالب الحياة المادية .

٣ — لا ننسى ما يوفره الصوم للشعوب الإسلامية من مواد الغذاء ، التى لا نحصل اليوم عليها إلا بصعوبة وبالنقد الأجنبى فى أحيان كثيرة .

٤ — ما فائدة الصوم مع ترك الصلاة والزكاة وأوامر الدين ؟
ليس كل الصائمين من التقاة ، ولا كل المفطرين من العصاة ، ثم ان الصوم يعد وسيلة للتربية الإسلامية الصحيحة ، وهذه التربية من شأنها أن تحول العصاة إلى مسلمين طائعين ، وليست مخالفة للقانون من جانب أو جانبين ، مبررا لمخالفته من جوانب أخرى .

٣ — ما موقف رجل الدين من المفطرين ؟

— موقفه الدعوة إلى الله وإلى الصوم بالحسنى ، وبالاقناع ، عن طريق الكتاب والصحافة والإذاعة ، وفى مجالس الوعظ فى المساجد والاجتماعات العامة وعن طريق التأثير الشخصى لرجل الدين فى أسرته ومحيطه الاجتماعى .

٤ — الصوم وعاداتنا الاجتماعية ؟ .

ناقص من اصل المصدر
من ٨٩ الى ١١٠



التفسير البيانى للقرآن الكريم

— ١ —

للدكتورة بنت الشاطىء تاريخ طويل مشرف لكفاح المرأة المسلمة ، فى ميدان الأسرة والإصلاح الاجتماعى ؛ وفى مجال العلم والحياة الجامعية ، وفى نواحى الأدب والصحافة والتعليم . . وآثارها فى هذه الجوانب كلها تنم عن فضل باهر ، وتدل على جهاد صادق فى سبيل الأمة والوطن ، ومن أجل خير المرأة العربية . .

ولها كذلك شخصيتها الاسلامية المحافظة ، التى تقف دائما فى طليعة الدعاة الى أن تأخذ حياة الشرق العربى الراهنة أمثل ما فى حضارته وتقاليده ودينه وتراثه ، ونضيف الى ذلك كل جديد من الحضارة الانسانية ، يرقى بالشعب ، وينهض بالأمة ، ويرتفع بالعروبة والعرب الى مستوى منزلتهم القديمة من قيادة العالم ، وحمل مشعل الحضارة والثقافة ، ليضىء الدروب والعقول فى كل عصر وجيل .

ولقد أعجبنى فيما أعجبنى من جوانب شخصيتها الرائدة ، جرأتها فى الحق ، وشجاعتها فى ابداء الرأى ، وانتصارها لمواقف الخير والانسانية فى كل مجالات حياتنا . .

نعم قد تتسم آراؤها بعاطفية المرأة فى حب الزهو ، والانتصار

للرأى ، ولكن ذلك لم ينأ بها أبداً عن موطن الحق والصدق والايمان ونبل المقصد ، وشرف العقيدة والغاية . .

— ٢ —

ونقف اليوم أمام أثر علمى جليل للدكتورة بنت الشاطىء ظهر فى العام الماضى ، وهو التفسير البيانى للقرآن الكريم ، هذا التفسير المتميز الجديد حقا فى شتى ما أثاره من مناهج وآراء .

ولا بد هنا من تفهم منهج هذا التفسير وموضوعه وآرائه لنستطيع أن نحكم على مدى أصالة هذا الكتاب وطابعه ، ومدى ما اشتمل عليه من تجديد .

أما المنهج فتحدثنا عنه الدكتورة بنت الشاطىء فى مقدمتها لهذا الكتاب ، تقول : « جاء شيخنا أمين الخولى ، فتناول القرآن نصا أدبيا على منهج أصله ، وتلقاه عنه تلامذته ، وأنا منهم ، ولكن التفسير الأدبى للقرآن ، ظل حتى اليوم محصوراً فى نطاق مادة « التفسير » ، دون أن ينقل الى مادة « الأدب العربى » مع المعلقات والمفضليات والنقائض والمقامات والرسائل» (١) .

وتتابع الدكتورة حديثها عن منهجها العلمى فى هذا التفسير

---

(١) ص ه التفسير البيانى .

أو فى هذا الكتاب ، فتقول : « ولا أعرف أحدا قبل اليوم قد حاول أن يجعل من النص القرآنى موضوعا لمحاضرات فى صميم الأدب على غرار ما يفعل بنصوص أخرى لا سبيل إلى مقارنتها بالقرآن الكريم فى إعجازه البيانى(١) . . ومنذ سنين وأنا أقوم بهذه المحاولة فى دراسة القرآن الكريم نصا أدبيا تطبيقا للمنهج الذى تلقيته(٢) . . والأصل فى منهج التفسير الأدبى — كما تلقيته عن شيخى — هو التناول الموضوعى الذى يفرغ لدراسة الموضوع الواحد فيه ، فيجمع كل ما فى القرآن عنه ، ويهتدى بمألوف استعماله للألفاظ والأساليب ، بعد تحديد الدلالة اللغوية لكل ذلك ، وهو منهج يختلف تماما عن الطريقة المعروفة فى تفسير القرآن سورة سورة ، يؤخذ اللفظ أو الآية فيه مقتطعا من سياقه العام فى القرآن كله ، مما لا سبيل معه إلى الاهتداء إلى الدلالة القرآنية لألفاظه ، أو استجلاء ظواهره الأسلوبية وخصائصه البيانية(٣) . . وقد طبق بعض الزملاء هذا المنهج تطبيقا ناجحا فى موضوعات قرآنية اختاروها ، واتجه بمحاولتى اليوم إلى تطبيق المنهج فى تفسير بعض سور قصار ملحوظة فيها وحدة الموضوع فضلا عن كونها جميعا من السور المكية ، حيث العناية بالأصول الكبرى للدعوة الإسلامية ، وقصدت بهذا الاتجاه إلى توضيح الفرق

---

(١) ص ٥ التفسير البيانى

(٢) ص ٦ المرجع

(٣) ص ١٠ المرجع

بين الطريقة المعهودة فى التفسير وبين منهجنا الحديث الذى يتناول القرآن فى جوه الإعجازى ، ويلتزم فى دقة بالغة قولة السلف الصالح : « القرآن يفسر بعضه بعضا » ، وقد قالها المفسرون ، ثم لم يبلغوا منها مبلغا : ويحرر مفهومه من كل العناصر الدخيلة والشوائب المقحمة على على أصالته البيانية(١) .

ونقف هنا لنبين مدى ما صنعته الدكتورة فى تفسيرها ، وما اختطته من منهج . . .

١ — إن الفكرة الأولى فى التفسير الأدبى أو البيانى ، هى للأستاذ الجليل الخولى ، ومنهج هـــذا التفسير الأدبى هو التناول الموضوعى الذى يفرغ لدراسة الموضوع الواحد من موضوعات القرآن الكريم ، فيجمع كل ما فى القرآن عنه ، ويهتدى بمألوف استعماله للألفاظ والأساليب ، بعد تحديد الدلالة اللغوية لكل ذاك .

٢ — طبق بعض تلاميذ الأستاذ الخولى هذا المنهج تطبيقا فى موضوعات قرآنية اختاروها ، وتقول الدكتورة إن هذا التطبيق كان ناجحا .

٣ — وطبقت كذلك هذا المنهج الدكتورة بنت الشاطىء فى تفسير بعض سور قصار ملحوظ فيها وحدة الموضوع ، فضلا عن كونها جميعا من السور المكية حيث العناية بالأصول الكبرى للدعوة

---

(١) ص ١٠ المرجع .

الإسلامية ، وهذه السور سبع ، هى : سورة الضحى ، الشرح ، الزلزلة ، النازعات ، العاديات ، البلد ، التكاثر .. وهى من سور جزء عم أو الجزء الثلاثين من القرآن الكريم .. وتقول الدكتورة : إنها قصدت بهذا التطبيق الاتجاه إلى توضيح الفرق بين الطريقة المعهودة فى التفسير ، وبين منهجنا الحديث ، بين طريقة جمهرة المفسرين حيث يؤخذ فيها ـ كما تقول الدكتورة ـ اللفظ أو الآية مقتطعا من سياقه العام فى القرآن كله ، مما لا سبيل معه إلى الاهتداء إلى الدلالة القرآنية لألفاظه أو استجلاء ظواهره الأسلوبية ، وبين منهج الأستاذ الخولى حيث يتناول النص القرآنى فى جوه الإعجازى ، ويلتزم فى دقة بالغة قول السلف : القرآن يفسر بعضه بعضا ، ويحرر مفهومه من كل العناصر الدخيلة ، والشوائب المقحمة على أصالته البيانية .

وقد زادت الدكتورة فى تطبيق هذا المنهج أنها جعلت من النص القرآنى موضوعا لمحاضراتها فى الأدب ، تقول فى تصديرها للتفسير البيانى : « ولا أعرف أحدا قبل اليوم قد حاول أن يجعل من النص القرآنى موضوعا لمحاضرات فى صميم الأدب ، على غرار ما يفعل بنصوص أخرى لا سبيل إلى مقارنتها بالقرآن الكريم فى إعجازه البيانى .. ومنذ سنين وأنا أقوم بهذه المحاولة فى دراسة القرآن الكريم نصا أدبيا ، تطبيقا للمنهج الذى تلقيته » .

هذا هو صميم منهج هذا التفسير ، بين أصله كما ارتآه رائد هذا الاتجاه وبين زياداته التى استقلت الدكتورة بالتجديد فيها ..

ولقد قابلنى منذ أيام بعض المحافظين ، وقال لى : إن طريقة التفسير الأدبى للقرآن تبعد النص القرآنى عن روحه الدينى ، وتتيح لذوى الأذواق المنحرفة — وليست منهم الدكتورة طبعا — أن ينفذ إلى مآرب أخرى ، عن جهل أو عن قصد ، وإنما طريقة تتجنى على جميع المفسرين . . ومع أنى أرى أن القرآن الكريم لا يخشى عليه من أى فهم ولا من أى أسلوب فى الفهم ، لأنه واضح وضوح الشمس ، ومعجزته الأدبية والبيانية لا يمكن أن يتطرق إليها الريب ، إلا أنى مع موافقتى على المنهج الذى اختطته الدكتورة بنت الشاطىء — أرى أن نقف موقفا وسطا ، فليس من مانع يمنع من تفسير القرآن الكريم وفق المنهج الأدبى أو البيانى ، بيد أن هذا المنهج يجب أن يبقى فى نطاق مادة التفسير لا مادة الأدب ، حتى لا تأخذ مذاهب الأدب الغربية ودعاتها الطريق إلى القرآن الكريم ومحاولة الحكم عليه بنفس المقاييس التى لا يفهمون غيرها ، ويقلدون غيرهم فيها تقليدا ليس بينه وبين التجديد أو الفهم المستقل صلة أو سبب ، على أن مقاييس الحكم الأدبى لا تزال فى عرفهم وفى غير عرفهم مضطربة متخاصمة لا تكاد تجمع على رأى ، وفى القديم والحديث تضاربت الآراء النقدية حول النصوص والآثار الأدبية تضاربا عجيبا ، واختلف حكم النقاد على على شعراء وأدباء اختلافا عجيبا خلال العصور والأجيال ، فابن الرومى — مثلا — لم يأبه به وبشعره أمثال أبى الفرج الاصفهانى وابن رشيق والقاضى الجرجانى وأبى هلال العسكرى وسواهم . . من حيث مجده نقاد معاصرون تمجيدا كبيرا .

— ٣ —

هذا بخصوص المنهج ورأيي فيه

أما من حيث التطبيق فأشهد أن الدكتورة قد أجهدت نفسها إجهادا كبيرا ، ووقفت موقف العالم المتأنى فى البحث ، المتعمق فى الفهم ، المجتهد فى إبداء الرأى .. فى أصالة وعمق وصدق ، وفى إخلاص وشرف ونبل غاية ، وفى إيمان عميق ، وعقيدة صافية ، وروح نبيلة .

وقفت أمام السور السبع التى فسرتها موقف المجتهد ، ترجع إلى شتى المراجع ، وتبحث فى معنى كله لفظة ، وتناقش فى كل فهم ، وتوازن بين مختلف الآراء ، وتستقصى كل الاتجاهات .

وكانت رائعة فى كثير من آرائها ، موفقة فى العديد مما اتجهت إليه فى فهم النص القرآنى .

تقول الدكتورة : تناول المفسرون مفردات القرآن تناولا لفظيا معجميا ، مجردا عن إيحائه المثير ، وسره البيانى ، معزولا عن الاستعمال القرآنى(١) .

---

(١) ص ١٨١ التفسير البيانى

وتقول : منهجنا الاحتكام إلى القرآن نفسه فى فهم ألفاظه(١) .

ومن مثل ما أعجبنى من آرائها فى تفسيرها لهذه السور السبع القصار ، وما أعجبنى كثير .

١ — فى الآية الكريمة : « وحصل ما فى الصدور(٢) » تقول الدكتورة فيما تقول : « فى قول المفسرين - إن معنى « حصل » جمع فى الصحف ، أى أظهر محصلا مجموعا - جور على المعنى القوى المثير لقوله تعالى « وحصل ما فى الصدور » ، فليس المقام هنا للجمع فى الصحف ، وإنما المقام للإنذار بيوم ينكشف فيـــه ما طوى فى الصدور ، ويظهر ما تخفى الأعماق(٣) .

٢ - وقد بلغت الدكتورة بنت الشاطىء فى تفسيرها لسورة البلد مبلغة الروعة حقا . . وإن كانت رائعة فيما تناولته من السور الست الأخرى .

٣ - وتقول الدكتورة فى الآية الكريمة : « حتى زرتم المقابر(٤) » ، فى التعبير عن الموت بالزيارة ملحظ بيانى بالغ القوة والروعة ، وهو صريح الايحاء بأن الإقامة فى القبر ليست إقامة دائمة ، وسوف تنتهى الزيارة حتما إلى بعث وحساب وجزاء(٥) . . وهذا ما لم يلحظه أحد من المفسرين .

---

(١) ١٤٨ (٢) آية ١٠ سورة العاديات
(٣) ص ١٤٣ التفسير البيانى (٤) آية ٢ سورة التكاثر
(٥) ص ٢٨ التفسير البيانى

٤ ـ وفى الآية الكريمة : « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم(١) » يذهب المفسرون إلى أن المراد بالنعيم نعيم الدنيا ، وتخالفهم بنت الشاطىء فتقول إن المراد نعيم الآخرة بدلالة استعمالات القرآن الكريم للفظ النعيم الذى لم يجىء إلا فى نعيم الآخرة .

٤ ـ وفى الآيات الكريمة من سورة الضحى وهى : « ماودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى » تقول الدكتورة فى إجمال معانيها : ماتركك فى أمسك ، وغدك أفضل من أمسك ، وما بعد غدك يرضيك(٢) . . وهو تفسير ملك على إعجابى . . وردها على الزمخشرى ومن نحا نحوه فى أن قوله تعالى : « ولسوف يعطيك ربك » فى تقدير : لأنت سوف يعطيك ربك رد قوى مصيب .

والحقيقة أن الدكتورة كانت فى تفسيرها هذا مجودة غاية التجويد مجددة ما أمكنها التجديد ، وكان تطبيقها للتفسير البيانى للقرآن الكريم تطبيقا ناجحا فى أكثر محاولاته .

— ٤ —

وأقف هنا حول عدة آراء للدكتورة فى تفسيرها الجديد الرائع وقفات قصاراً . .

أولا : فى الآية الكريمة « رفع سمكها فسواها » من سورة

---

(١) آية ٨ سورة التكاثر (٢) ص ٢٨ التفسير البيانى

النازعات ردت الدكتورة قول الامام محمد عبده بأن التسوية هى وضع كل جرم فى موضعه ، وقالت إن فيه بعدا ، وقد يأباه الإستعمال القرآنى للتسوية والسوى والسواء فى معناه اللغوى من الاستقامة والاعتدال فيما يكون فى استوائه ملحظ دقة وإحكام(١) . وفى رأيى أن فهم الإمام محمد عبده أقرب إلى السلامة والعقل من غيره .

ثانيا : فى شرح الدكتورة للآية الكريمة : ووجدك عائلا فأغنى وهى إحدى آيات سورة الضحى - أفاضت إفاضة دقيقة فى شرح المدلول اللغوى لكلمة الغنى ، واستقصت القرآن الكريم فى هذه اللفظة ، وجعلت من مواد هذه الكلمة ما كان مثل قول الله تعالى : ماأغنى عنكم جمعكم ، أى ماأجدى . وفى رأيى أنه مع اتفاق الحروف فى قوله تعالى « فأغنى » فى سورة الضحى وفى قوله تعالى هنا « ماأغنى عنكم الخ » فإن « أغنى » عنا بمعنى أجدى ولا تتعلق بالغنى أدنى تعلق والغنى هو بلوغ سد الحاجة وليس هو الثراء ، وفى كلام المفسرين مايفهم أن معناه الإثراء ، وقد تضمن كلام الدكتورة هنا مثل ذلك الفهم .

ثالثا : تقول الدكتورة فى الآية الكريمة : « أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها » من سورة النازعات ، الخطاب الظاهر أنه عام ، والمقصود منكرو البعث على ماقال أبو حيان ، وإنما أنكروه استبعاداً لإمكان عودة الإنسان إلى الحياة الدنيا بعد أن يفنى ويبلى(١) . . وفى فهمى

(١) ص ١١٧ التفسير البيانى

أن لفظة « الدنيا » قد زيدت على الأسلوب زيادة مخلة . . وقد تكون من زيادات المصححين .

رابعا : تقول الدكتورة فى الآية الكريمة : « يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم » من سورة الزلزلة : إن « كونهم يصدرون أشتاتا أى متفرقين أدعى للحيرة والخوف والرهبة إذ مع الجماعة يكون نوع من الأنس والإلف(١) » . . وقد يكون فى رأيى صدروهم أشتاتا لبيان شدة الهول ، وضخامة الحادث ، مما أفقد الناس تفكيرهم وأفقد العقول اتزانها ، فهام الناس على وجوههم ، لا يلوى أحد على صاحبه ، ولا يجد أحد متسعا للتفكير : أمعه رفيق أم ليس معه رفيق .

خامسا : فى الآية الكريمة : « يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة » من سورة النازعات أختارت الدكتورة مع جمهرة المفسرين تفسير الحافرة بالحياة فى حفرة القبر ، وردت رأى ابن عباس بأن المراد بها الحياة الثانية(٢) ، فقالت : « إن سياق الآية لا يعين عليه ، فضلا عن أن القرآن لم يستعمل الرد بمعنى المصير إلى الله أو إلى الحياة إلا مع الحرف « إلى » .

وعندى أن رأى ابن عباس أصوب مذهبا ، وعلى رأيه لا يبقى هنا داع لرد الاستفهام إلى التمنى أو إلى الاستبعاد(٣) ، بل يبقى على حقيقته ، سؤالا فى مقام الحيرة يطلب به العلم بالجواب ، والحافرة

---

(١) ص ٨٣ التفسير البيانى (٢) ص ١٠٢ التفسير البيانى

(٣) ١٠٥ المرجع .

حينئذ بمعنى المثيرة التراب من الحفرة ، وبذلك لا تبعد الآية عن سياق الآيات الأخرى المتشابهة التي أوردتها الدكتورة كلها ، من مثل « أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون » وتكاد الدكتورة تميل إلى ذلك فتقول في موضع آخر : « وإذا فسرنا الرد في الحافرة بأنه البعث للآخرة ، فالكرة هنا بمقتضى اسم الإشارة هي تلك العودة إلى الحياة بعد موت(٢) » ، وأزيد على ذلك بأن وصفهم لها بأنها كرة خاسرة لأنهم لم يكن لهم أعمال صالحة تجعلها كرة رابحة .

والملاحظة السادسة والأخيرة :

وهي التي قد يكون لي فيها وجه ، ما جاء في تفسير سورة البلد في الآيات الكريمة : « فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو إطعام في يوم ذي مسغبة ، يتيما ذا مقربة ، أو مسكينا ذا متربة ، ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة » فالقرآن جعل كل هذا من اقتحام العقبة وتحمل المسئولية ، والإنسان مطالب بها جميعها . . وقدم القرآن فك الرقبة والاطعام للاهتمام بهما في مجتمع جاهلي خوطب بالقرآن ، ثم رفع من منزلة الإيمان بالتعبير بثم ، لأن الإيمان إذا وجد وجد كل عمل صالح وخلق كريم ، هذا هو رأى المفسرين جميعا ، ورأيي معهم . . أما الدكتوره فتخالفهم في الرأى ، وترى أن تأخذ بصريح الترتيب في الآيات ، وتقول مانصه : « يبين القرآن مراحل اقتحام العقبة ، فيضع كرامة الإنسانية بالعتق »

---

(١) راجع ص ١٠٣ المرجع .

والعدالة الاجتماعية باطعام فقير أو مسكين ، خطوتين سابقتين على الإيمان مقررا ألا سبيل إلى رجاء الإيمان فيمن غره جاهه فاسترق مخلوقا مثله ، وتحجر قلبه فلم يطعم فى المجاعة يتيما أو مسكينا ، ومعلنا ألا مكان لإيمان صادق مخلص فى مجتمع يسيغ إهدار البشرية ويطيق أن يمسك الطعام فى يوم مجاعة عن يتيم ذى قربى مسكين معدم لا يجد إلا التراب(١) .

هذا هو نص الدكتورة ، ومعنى ذلك أن الإيمان يجىء فى المرتبة الثالثة لا الأولى . . ودائما نقول إنه لا يستطيع المحافظة على حقوقه إلا مؤمن بها ، فالإيمان أولا لأنه فى يد الرقيق وثيقة الحرية ، وما جدوى تحريره إذا لم يكن يملك الإيمان به ، ولا يملك الوثيقة التى أعلنت تحريره . . أولا ، لأن الإيمان هو الحرية والوسيلة إلى الكرامة الإنسانية .

— ٥ —

وبعد فماذا أقول فى جهد على صادق موفق يعجز عن مثله عشرات الباحثين والمجددين ؟

ماذا أقول فى عمل عظيم كهذا العمل ؟

إن الدكتوره بنت الشاطىء حرية منا ـ لهذا العمل العلمى وحده ـ بكل إجلال وتقدير وتهنئة .

---

(١) ص ١٧٠ التفسير البيانى .

دعوة الاسلام

إذا كان هناك دائرة معارف صغيرة ، تشرح الإسلام ، وتوضح أصوله ، وتفصل الحديث عن نظرياته ، في إيجاز ودقة وعمق ، فليكن هذا الكتاب ، الذى يتحدث فيه مؤلفه الأستاذ سيد سابق عن الوحى والقرآن والسنة باعتبارها من مصادر التشريع ، وعن أسس التربية الإسلامية وروابط المجتمع ، حديثا يجمع بين دقة العالم، وحماسة الداعى إلى الله ، وبلاغة الأديب الذى يصور بعواطفه ووجدانه وقلبه وعقله فكرة عميقة نافذة إلى أعماق نفسه ومشاعره .

وفى صدر الكتاب يشرح المؤلف الحرب الخفية التى يشنها على الإسلام أعداؤه من كل مكان ، وواجب القادة والمصلحين فى الدفاع عن الإسلام ، والكشف عن سموه وجماله .

وإذا أحببنا أن نتبين أهمية الكتاب وأسلوبه فلنرجع إلى ما كتبه المؤلف الجليل فى بحث مثل « الإسلام هو العاصم من مفاسد المدنية الحديثة .. يقول :

إن من المتفق عليه أن من نقائص المدنية الحديثة إهدار القيم الروحية مما تسبب عنه تدهور الأخلاق ونضوب معين الفضائل ، واعتبار القوة وتقديسها إلى حد العبادة دون مراعاة للحق والعدل ، والتهديد بالحرب واختراع أدوات التدمير والتخريب ، مما جعل الناس

يعيشون فى جو يسوده القلق والاضطراب . . وهذه النقائص هى نفسها نقائص الجاهلية ، وقد كانت مثار فساد كبير فى المجتمع البشرى، ما اقتضى جهودا كبيرة . من رسل الله وأنبيائه . وقد جاء الإسلام ليمنع هذه المفاسد ، وليبنى مدنية راقية تتفق مع رقى الإنسان الفكرى، ونضوجه العقلى ، فدعا إلى الاصلاح ، ونهى عن الفساد فى الأرض ، فقرر أن الهلاك لايحل بالأمة ، وهى صالحة مصلحة ، تؤمن بالحق ، وتفعل الخير ، . . إلى أن يقول :

« هذه دعوة الإسلام إلى الاصلاح ، ونهيه عن الإفساد ، لينظم أمر العيش ، وليطمئن كل « على نفسه وماله وعرضه وكرامته ، أما شريعة الغاب التى يطبقها دعاة الحضارة فى هذا العصر فهى بربرية لا تتمشى مع ما حصل عليه الإنسان من رقى مادى ، وكشف علمى ، ونجاح فى ميادين الحياة المختلفة ، ونحن معاشر المسلمين مطالبون بنشر دعوة الإسلام ، لنقدم للناس هذا النور الذى لا غنى لهم عنه ، وهذا الروح الذى لاحياة لهم بدونه ، وهذه القيم التى تجعل الإنسانية تستمتع بسكينة النفس ، وطيب العيش ، وسلام الضمير » .

والمؤلف ومنزلته فى الدعوة إلى الإسلام معروفة ، يجمع فى تقرير الحقائق بين النظرية العلمية والنص الإسلامى ، ويستمد من النظرية الحكم العام ، ويستمد من النص التطبيق التفصيلى على الحكم ، والتأييد القوى للفكرة . .

على أن منهج المؤلف فى كتابه جديد غير مقتبس ولا منقول ،

والمنهج هو الذى يبين أهمية عمل المؤلف وفكرته .

وبجانب المنهج المبتكر ، والنظريات الأصيلة والتطبيق السليم ، يبدو فى الكتاب كذلك منقبة جليلة هى أناة العالم وصبره فى البحث ، وخلوصه إلى الحقائق ، وطواعية الفهم السليم أمام قلمه .

ولا غنى للشباب الإسلامى اليوم عن مثل هذه الثقافات الإسلامية الجليلة التى تملأ الفراغ حولهم وفى عقولهم ، يقاومون بها بها الحرب المعلنة على الأديان عامة وعلى الإسلام بصفة خاصة ، فى هذا الفترة ، التى يسودها القلق الروحى والاضطراب والحيرة التى يمنى بها هذا الجيل من الناس .

إن المؤلف وقد أنار الطريق بكتابه هذا أمام الشباب والدارسين ، وبسط لهم أصول الإسلام ونظرياته ومبادئه فى صدق وحسن تقرير وسلامة فهم ، ليستحق منا كل تقدير واهتمام ودعاء له بالتوفيق فى خدمة الإسلام ورسالته الجليلة النافذة إلى أعماق الحياة .

الاسلام بين الانصاف والجحود

تختلف المذاهب وتتصارع ، وتتعدد الاتجاهات وتتباين .. ومن الضرورى التقاؤها وتصالحها وتفاهمها لخير الحياة والجماعة الإنسانية .

والإسلام دين يسعى إلى السلام ، ويأمر بالحسنى والإنصاف فى الحجاج والمناقشة ، ويبنى شرائعه على أصل واحد هو أخوة الجماعة الإنسانية وما تستوجبه هذه الأخوة من تعاون وعمل مشترك لتحقيق مطالبها الروحية والحسية ، وللسعى بها نحو المثـــل العليا والأهداف النبيلة فى الحياة . . ومن ثم كانت مبادىء الإسلام عامة لا تفرق بين الجماعات أو العناصر والألوان والأجناس . . العدالة للجميع والمساواة بين الجميع فرض واجب وشريعة ملتزمة .

ومن عجب أن الإسلام الذى يمد يديه فى تسامح ونبل إلى الوئام والسلام والتعاون ، والذى يحترم الرسالات السماوية ويقدرها ، ويوصى أتباعه باحترامها ، لا يجد من حوله إلا الخصومة والعداء والكراهية والحقد ؛ فقد دفع التعصب والاستعمار معا كثيرا من المستشرقين والباحثين فى أوربا إلى مهاجمة الإسلام ، وإعلان الحرب عليه ، ونشر روح البغضاء والكراهية له فى نفوس الجماهير ؛ وبعث كذلك الخوف من انطلاقة إسلامية جديدة رجال السياسة فى أوربا إلى التهجم على الإسلام ، ورصد القوى المدمرة ، والدعايات الضخمة لمناوأته والهجوم عليه ..

ومن الضرورى جداً للمسلمين أن يتأملوا فى تدبر وحذر الأموال الضخمة والدعايات القوية والحملات الصاخبة الموجهة إليهم ، وإلى دينهم « الاسلام » قبل كل شىء .

إن العرب المسيحيين الذين نعيش بينهم ويعيشون بيننا هم إخوتنا فى الوطن واللغة والآمال والآلام والمصالح المشتركة . . وهم قبل كل شىء أكثر إنصافا للإسلام وتقديرا لرسوله الكريم ، وكتابه الحكيم . . وشهاداتهم للاسلام ورسالته فيها الكثير من الإنصاف وعدالة الحكم ، ومن بين هؤلاء فارس الخورى ، وبشارة الخورى والشاعر القروى ، الياس فرحات ، ونظير زيتون ، ووديع فلسطين ، وأعلام كثيرون . .

أما أوربا فيدفعها شىء آخر إلى الهجوم على الإسلام ورسالته هو حب السيطرة ، والرغبة فى الاستعمار ، والحذر من بعث إسلامى جديد ، وترقب الفرص للقضاء على أهم مقومات القومية العربية وعناصرها الدافعة الموجهة ، وهو الدين ثم اللغة .

ونحن فى أولى معارك القومية العربية مع الاستعمار فى أشد الحاجة إلى معرفة الآراء التى كتبها الباحثون والمستشرقون فى أوربا ، من منصفين وجاحدين ، عن الإسلام ورسوله الكريم ، لنعرف خصومنا وأصدقاءنا ، ولنعرف ما يقال عنا وعن ديننا . . ومن ثم كانت أهمية هذا الكتاب الذى نناقشه فى هذه الندوة وهو « الإسلام بين الانصاف

والجحود» ، الذى عرض فيه مؤلفه محمـــد عبد الغنى حسن آراء الباحثين الغربيين فى الإسلام ، سواء منهم من أنصفه ومن تحامل عليه ، ورد على الآراء الظالمة فى لباقة وإنصاف وفطنة ظاهرة .

إن الإسلام فى الإمكان دراسته على ضوء المنهج العلمى ، وسوف يبدو أمام مثل هذا البحث متألقا عظيما متطوراً مع الحياة ومع المبادىء الجديدة المتصارعة فيها .. ومن البدهى أن مادية ماركس وهى تحارب الأديان جملة قد خصت الإسلام بنصيب موفور من تحاملها وحربها ، فهذا فينيكوف فى كتابه «خرافة الدعوة المحمدية» يتهجم على الإسلام تهجما سافراً ، وهذا كليموفتش يزعم أن فيما ذكره القرآن من بدء خلق الإنسان من الطين مرة ومن أوصاف الطين مرة أخرى تناقضا . ولا حيلة لنا مع مذهب مادى يحارب الأديان والرسالات والشرائع جملة ، وينكر القوى الغير المحسوسة التى تسيطر على الحياة .

وقد ذكر المؤلف فى كتابه هذين الرأيين (ص٩٣و١٠٠) وناقشهما ورد عليهما فى قوة حجة وصدق دفاع .

ويبنى المؤلف الكبير كتابه على ثلاثة فصول عرض فيها ما كتب فى انصاف الاسلام والقرآن ومحمد ، وثلاثة فصول أخرى عرض فى فصلين منها لأسباب الحرب التى شنها الغربيون على الإسلام وهما الفصل الأول والثانى ، وبحث فى فصل آخر بعض النظريات العامة للاسلام ، وما أثير حولها ، وهو الفصل الرابع . وصدر الكتاب بمقدمة موجزة عن الباعث الذى دفعه إلى تأليف الكتاب .

وميزة الكتاب أنه يخضع لمنهج علمى مدروس ، وأنه ثمرة اطلاع شامل ، وأن المؤلف يستقصى فيه كل رأى ، ويدرس كل فكرة ، ويناقش كل مسألة ، ويبدى رأيه فى كل بحث .

وعبد الغنى حسن مع شاعريته الممتازة ، وطلاقته الفنية الأصيلة ، وأسلوبه الأدبى المطبوع الرصين . . مؤلف معروف ذائع الشهرة فى الأوساط العلمية ، ومؤلفاته متعددة المنازع والموضوعات ، وكتابه الذى نتحدث عنه « الإسلام بين الإنصاف والجحود » أكثر هذه الكتب عمقا ، ودقة ومنهجية بحث . وهو من الكتب الموضوعية الجديرة بالتأمل والدراسة . . ولمثل هذا الكتاب أهمية كبيرة ، وخاصة فى الجو الذى نعيش فيه اليوم ، والذى تحاول المادية فيه صرفنا عن النزعة الدينية جملة .

ولو أن الباحثين الغربيين تأنوا قليلا لألزموا أنفسهم بالتعاون مع الاسلام فى حرب المادية المدمرة التى لاتستثنى من حربها دينا من الأديان ، ولا نظاما من النظم .

وكتاب الاسلام بين الانصاف والجحود « يجمع بين دفتيه مع ايجازه كثيرا من عناصر البحث فى الاسلام ومن النظريات الاسلامية والشبهات التى أثيرت حول مبادئه . . وفيه كذلك شهادات ناصعة منصفة فيها تقدير لأصوله وشرائعه وكتابه الكريم ورسوله العظيم .

وقد يكون فى مثل تعبير المؤلف « الاسلام فى موقف الاتهام » والقرآن فى قفص الاتهام مالا يرتضيه بعض الدارسين ، ولكن منهجية

البحث الذى قدمه المؤلف هى التى كانت تستلزم مثل ذلك البحث ، ومثل هذه التعبير .

وإذا كان هناك عمل علمى أو أدبى للشاعر محمـــد عبد الغنى حسن* نهنئه به ، فإننا نهنئه أولا بهذا الكتاب القيم الذى ظهر فى إبانه ، وسوف تكون له نتائج كبيرة ، منها دفع الدراسات الاسلامية نحو وجهة جديدة مثمرة ، ونحو ميدان واسع مترامى الأطراف . . بعد أن شبع الناس من الكتابة المكرورة حول الاسلام وعبقريات أعلامه .

ولا شك أن دراسة آراء الغربيين فى الاسلام ومناقشتها عمل مهم يعود على الدراسات الاسلامية بالنفع والجدوى . .

والجيل الناشىء من شبابنا جدير منا أن نضع فى أيديهم مايقوى إيمانهم ، ويبصرهم بعقيدتهم ، ويزيل من نفوسهم الريب والشبهات . . وبكل ثقة واعتزاز نقدم لهم هذا الكتاب .

وسائل تقدم المسلمين

— ١ —

كتاب جديد يضيفه أحمد الشرباصى إلى المكتبة العربية ، يحمل النور والهدى ، إلى القلوب ، ويقرب رسالة الإسلام ومبادئه وأصوله إلى العقول ، ويبصر المسلمين بماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم .

والشرباصى عرفته الأوساط الثقافية والعلمية حق المعرفة ، وجدت فيه رجل الدين الواعى البصير بشئون الحياة ، المتفهم لكل جديد فى ميادين الفكر ، الملم بشتى الاتجاهات والتيارات ، الخَبير بالزمن وأهله ، والمجتمع وحياته .

والشرباصى الأديب والخطيب والمحاضر والمناظر والكاتب والمؤلف درة متألقة ساحرة ، تستحوذ على القلوب ، وتنال الإعجاب والتقدير .

والكتاب « وسائل تقدم المسلمين » بفصوله المتتالية البالغة أحد عشر فصلا ، ثروة إسلامية كبيرة ، تزخر بشتى الأفكار والآراء والمبادىء والأصول التى تصور الإسلام فى صورته الحقيقية المشرقة الباهرة ، دينا يسمى بمعتنقيه إلى الحضارة والمدنية والمجد والعزة والرخاء .

وعمق البحث ، وتركيز الأسلوب ، وكثرة المصادر والمراجع .

وجدة التطبيق لمبادىء الإسلام على الجديد فى حياة المسلمين المعاصرة وشجاعة الرأى وجهارته وقوته من أهم ميزات الكتاب ، الذى نقدمه للشباب العربى المسلم ليقرأه ويتدبر ما فيه .

— ٢ —

وفى الفصل الأول يخطط المؤلف أصول البحث ويركز منهجه ، ويبلغ الغاية وهو يتحدث عن التقدم والمسلمين والإسلام ، وعن وسائل التقدم المادى منها والمعنوى ، العلمى والروحى ، الاقتصادى والصناعى والأدبى والأخلاقى .

وفى الفصل الثانى يدرس الآراء العديدة التى كتبها المؤلفون حول موضوع وسائل تقدم المسلمين ، يعرض لآراء شكيب ارسلان فى كتابه « لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ؟ » ، وفى تعليقاته على كتاب « حاضر العالم الإسلامى » ، كما يعرض لآراء الكواكبى فى كتابيه : « أم القرى » ، « وطبائع الاستبداد » ، ولآراء أخرى لعلماء مسلمين ومستشرقين ؛ ويلاحظ أنهم كتبوا عن أسباب تأخر المسلمين ، ولم يكتبوا من الجانب الإيجابى على أسباب تقدمهم .. ويفصل بين الإسلام والمسلمين ، الإسلام فى أصالته وصدقه وحقه ، والمسلمين فى ضعفهم الروحى والمادى « الذى كان من أهم أسبابه الاحتلال الأجنبى لبلادهم » .

وفى الفصل الثالث يتحدث فى إفاضة عن أسباب تقدم المسلمين فى المجال الدينى ، مقترحا تخطيطات كثيرة كفيلة بهذا التقدم ، وهذا الفصل هو أطول فصول الكتاب وأدقها .

وفى الفصل الرابع يتحدث المؤلف عن رجل الدين ، وأهميته فى تقدم المسلمين إذ هو المعلم الذى يستطيع أن يغرس تعاليم الدين ومبادئه فى النفوس ، فيرسم المثل الأعلى لرجل الدين ، لكى يستطيع الإسهام فى إعداد المسلمين لحمل رسالتهم ، وفى العمل على تقدمهم وعلى تحررهم وعلى عزتهم وحريتهم .

وفى الفصل الخامس يتحدث عن الناحية الاخلاقية وأهميتها باعتبارها من مقومات التقدم . . ثم يتحدث عن الناحية العلمية والاقتصاد فى فصلين متتاليه هما السادس والسابع .

وفى الفصل الثامن يتحدث عن الناحية السياسية ، وصفات الحاكم وواجباته ومسئولياته نحو رعيته ، وفى هذا الفصل تتألق شخصية الشرباصى وتبدو شجاعته الفكرية واضحة للعيان .

وفى الفصل التاسع يتحدث المؤلف حديثا يجمع بين العروبة والإسلام ، فيذكر أن من أهم وسائل تقدم المسلمين تبعا لهم ، لأن أغلب العرب مسلمون ، والعرب هم أهل الدعوة الأولى وحملة الدين إلى الناس ، وهم الصالحون اليوم لتجديد شباب هذه الأمة وبعث الحياة والقوة فى كيانها .

وفى الفصل العاشر يتحدث عن وسائل المسجد ، ويريده جامعة إسلامية مصغرة .

وفى الفصل الحادى عشر يتحدث عن وسائل أخرى للتقدم ،

من مثل العناية بتعميم الرياضة ، وتكوين الدعاة إلى الإسلام ، والتعريف المستمر بالعالم الإسلامى ، وتحريض شباب المسلمين على الرحلة والهجرة ، واستغلال ثروتنا الزراعية والمعدنية وسواها ، إلى غير ذلك من وسائل ومقومات للتقدم والمدنية .

— ٣ —

والكتاب يحتوى على الكثير من الآراء عن الإسلام وعناصر السمو والقوة فيه ، وقد بحث المؤلف كثيرا من الحقائق المجهولة فى الإسلام ، من مثل : الاشتراكية الإسلامية ، وصلة الإسلام بالفن ، والديمقراطية السياسية فى الإسلام وسواها .

وينادى الشرباصى بجمع الزكاة وصرفها فى مصارفها المشروعة وبالكثير من الآراء القيم الجديدة المثمرة .

— ٤ —

وإذا أردنا أن نقيم هذا الكتاب الجليل ، فحسبنا أن نعرف أنه خير ما يهدى إلى الشباب الإسلامى ليقرأوا فيه أصول الإسلام ومبادئه مركزة أتم تركيز ، ومجلوة فى أروع بيان ، وأبلغ برهان .

والكتاب كذلك يزن كل قضية يعرض لها بميزان العقل لا بميزان العاطفة الدينية ؛ والشرباصى كان موفقا غاية التوفيق فى كذلك كله . مما يجعلنى نهنئه بهذا الكتاب الخصب القيم .

— ٥ —

وإذا كنا نعيش اليوم فى آثار حملة ظالمة على الدين والإسلام ، فإن كتاب الشرباصى ينير السبيل أمام الباحثين ، ويلقى أضواء جديدة على معركة الاسلام مع الماديين والجاهلين .

وسوف يكون لكتاب الشرباصى خطره وأثره وأهميته فى الدراسات الاسلامية ، ولا شك أنه شعلة مضيئة تنير الطريق أمام الزحف الاسلامى الصاعد ، الذى نتمنى له التوفيق والسداد .

— ٦ —

ومن أعماق قلوبنا نقدر هذا الكتاب ، وجهد مؤلفه فيه حق قدره ، ونرجو أن يذيع فى أيدى الشباب العربى الذى لا يجدون ما يقرأون من دراسات إسلامية ، والذين طالما وضعنا فى أيديهم التافه من البحوث والكتابات .

ولا شك أن فجرا جديدا متألقا سوف يضىء السبيل للمسلمين ، ليتقدموا ويتحرروا ويعزوا ويسودوا ، ليرجع لهم مجدهم الغابر ، وعزهم الآفل ، ومجدهم التليد .

الإسلام فى الهند

— ١ —

عندما نذكر الأستاذ عبد المنعم النمر نذكر رحالة من خيرة الرحالين المسلمين المعاصرين، الذين تعى ذاكرتهم الأحداث وما وراء الأحداث، وتروى عقولهم التاريخ وما وراء التاريخ، وتبصر أرواحهم أسرار السياسة وخفاياها بعقل المؤرخ، وفكر العالم الدارس المتخصص.

وعندما نقرأ للنمر كتابه «الاسلام فى الهند» يروعنا النمر بنضجه العقلى والفكرى، وبشدة وعيه للأحداث، ويقظته فى إدراكها وتفهمها بروحه المنصفة فى التاريخ والبحث، وباطلاعه الواسع وقراءاته الطويلة، وبأسلوبه الرصين، وبيانه الجميل الواضح؛ ولقد سجل النمر الكثير من الأحداث، وأشار إلى كثير من الوثائق، واستقصى تاريخ الاسلام فى الهند فى كثير من مظانه، وحلل الوقائع، وعلل الحوادث، ووازن بين المواقف التاريخية المتشابهة، وكشف عن مؤامرات الاستعمار ومكائده للقضاء على مجد الإسلام والمسلمين فى الهند، وألم إلماما واسعا بالدول الإسلامية التى قامت هناك، وفى مقدمتها: الدولة الغزنوية، والدولة الغورية، ودولة المماليك، والسلاطين الخلجية، والدولة التغلقية، ودولة السادات، ودولة أسرة لودى، ودولة المغول أو الدولة التيمورية، وهى آخر الدول الاسلامية التى قامت فى الهند والتى حكمت الهند أكثر

من ثلاثة قرون ، انتهت عام ١٨٥٧م - ١٢٧٤هـ حيث تآمر الاستعمار الانجليزى ، وسعى فى القضاء عليها وعلى آخر ملوكها بها دور شاه المغولى ، وسلط جنوده والهندوسيين معهم على المسلمين يذيقونهم سوء العذاب ، ويفتنون فى التنكيل بهم ، وفى التمثيل بضحاياهم وقتلاهم شر تمثيل . . كل ذلك للقضاء على استقلال الهند ، لضمها إلى التاج البريطانى ، ولمحو أثر الاسلام من ربوع هذه البلاد . . ولقد رسم النمر صورا صادقة لكل هذه الحوادث والأحداث ، واستشهد بآراء الأوربيين فى تصوير هذه المأساة الدامية التى كانت بمثابة مأساة الأندلس ونكبتها المروعة الفاجعة ، وكشف عن دسائس انجلترا والاستعمار الانجليزى الماكرة ، التى استطاعت أن تدمر بها آخر دول المسلمين فى الهند ، وأن تحطم الحكم الاسلامى فى هذه البلاد وتنهبه فى صورة دامية أليمة .

وقد كشف النمر عن الروح الاسلامية فى الهند ونقب عن معالمها ورسم صورا صادقة لها ولجهاد المسلمين فى شبه هذه القارة فى سبيل نشر المدنية والحضارة والثقافة . . وطاف بالكثير من معالم الهند وآثارها الاسلامية باحثا منقبا دارسا . .

على أن المادة التاريخية فى الكتاب مع ضخامتها ودسامتها كانت تحتاج إلى شىء من التنظيم والتنسيق أكثر من هـذا الذى وضعه النمر ، وقد كانت المواد التى لا تتصل بالتاريخ كثيرة لا داعى لأغلبها وخاصة فصول الكتاب الأولى . . . على أن الأستاذ

النمر فاته بعض المراجع المهمة ، وفى مقدمتها كتاب محمد عبد المجيد العبد «الإسلام والدول الإسلامية فى الهند» الذى ألفه عام ١٩٣٩ ، وكان مؤلفه عضوا فى مجلس الشيوخ المصرى ومع هذا فليس هناك شك فى أن المؤلف ، وضع لنا موسوعة كبيرة عن الهند ، وأن هذه الموسوعة لها أهميتها وضرورتها فى فهم تاريخ الإسلام وتطوره حتى العصر الحديث . . وأحب أن يضيف الأستاذ النمر إلى هذا الكتاب القيم فى طبعاته الجديده بحوثا واسعة عن الحضارة الإسلامية فى الهند . وعن صلات الدول الإسلامية فى الهند بالدول الإسلامية التى قامت فى الشرق الإسلامى .

— ٢ —

هذا وقد فتحت الهند فى أيام الدولة الأموية ، وقام بالفتح محمد ابن القاسم الثقفى ، وهذه هى الدول الاسلام التى قامت فى الهند :

(ا) الدولة الغزنوية (٣٦٦ - ٥٤٧ هـ) ، أسسها ناصر الدين سبكتكين (٣٦٦ - ٣٨٧ هـ) وخلفه محمود الغزنوى (٣٨٧ - ٤٢١ هـ)، ومسعود بن محمود (٤٢١ - ٤٣٢ هـ) .

(ب) الدولة الغورية قامت عام ٥٨٢ هـ على يد شهاب الدين الغورى (٥٨٢ - ٦٠٢ هـ) .

(جـ) دولة المماليك وقد قامت عام ٦٠٢ هـ ، ومن ملوكها : قطب الدين

أيبك (٦٠٢ - ٦٠٧ ﻫ) وشمس الدين ألتمش (٦٠٧ - ٦٣٢ ﻫ)، ورضية بنت شمس الدين (٦٣٢ - ٦٣٦ ﻫ) وناصر الدين بن شمس الدين (٦٣٦ - ٦٦٤ ﻫ) وغياث الدين بلبان (٦٦٤ - ٦٨٥ ﻫ).

(د) السلاطين الخلجية (٦٨٩ - ٧٢١ ﻫ) ومن ملوكها: جلال الدين فيروزشاه (٦٨٩ - ٦٩٥) وعلاء الدين الخلجي (٦٩٥ - ٧١٦ ﻫ).

(ﻫ) الدولة التغلقية (٧٢١ - ٨١٧ ﻫ) ومن ملوكها: غياث الدين تغلق شاه (٧٢١ - ٧٢٥ ﻫ) ومحمد تغلق شاه (٧٢٥ - ٧٥٢ ﻫ) وفيروز شاه التغلقي (٧٥٢ - ٧٩٠ ﻫ).

(و) حكم السادات (٨١٧ - ٨٥٥ ﻫ) ومن ملوكها: خضر خان (٨١٧ - ٨٢٤) ومبارك شاه (٢٤ - ٨٣٩ ﻫ).

(ز) حكم أسرة لودى (٨٥٥ - ٩٣٢ ﻫ).

(ح) دولة المغول أو التيمورية (٩٣٢ - ١٢٧٣ ﻫ) ومن ملوكها: ظهير الدين محمد بابرشاه (٩٣٢ - ٩٣٧ ﻫ) وهمايون شاه (٩٣٧ - ٩٤٧) وشيرشاه السورى ٩٤٧ - ٩٥٢ ﻫ وجلال الدين أكبر بن همايون ٩٦٣ - ١٠١٤ ﻫ، وجهانكير ١٠١٤ - ١٠٣٧ ﻫ وشاهجهان ١٠٣٧ - ١٠٦٩ ﻫ وبنى تاج محل، ثم عالمكير ١٠٦٩ - ١١١٨ ﻫ وشاه عالم بهادور شاه ١١١٨ - ١١٢٤ ﻫ، وفروخ سير ١١٢٤ ﻫ، وعلى الجملة فإن كتاب الإسلام فى الهند «يعد من معالم الطريق لنرى مجد الإسلام وسلطانه فى أوسع رقعة من الارض، وأضخم دولة فى التاريخ».

خطر الاعتماد على المراجع الأجنبية

فى تحقيق تاريخ الإسلام

قرأت ما نشر فى مجلة الأزهر عدد محرم عام ١٣٧٧هـ بعنوان « من الإسلام إلى الإيمان » ، وقد تحامل الكاتب تحاملا مقصودا أو غير مقصود على جماعة كبيرة اتسمت بالجهاد الصادق والبلاء الأكيد فى خدمة الإسلام والمسلمين . ومن الغريب أن المقال نفسه سبق أن نشر فى مجلة الفتح منذ أمد طويل ونشر صاحب مجلة الفتح الأستاذ محب الدين الخطيب فى مجلته تكذيبا من إمام هذه الجماعة .

وقد أعلنت الإذاعة المصرية منذ أشهر أن زعماء التيجانية قد اعتقلتهم فرنسا فى الجزائر ؛ والطريف أن الكاتب قد استشهد فى مقاله بكتاب فرنسيين ومراجع فرنسية وهؤلاء يهمهم تشويه سمعة الإسلام ورجاله ودعواته . وكل المواقف التى ذكرها الكاتب فيها ما يدل دلالة واضحة على تزوير الاستعمار وتلفيقه وتعمده نسبة أمور إلى زعماء هذه الطائفة الجليلة لم تقع وليس لها حقيقة ؛ وإن الكتاب الذين يقولون إنهم سلفيون ليس لهم من هم إلا تشويه جهاد أعلام الصوفيه وتاريخهم الوطنى والدينى الرفيع لغرض خفى لحاجة فى نفس يعقوب .

وأنبه هنا إلى خطر شديد هو اعتماد الكتاب المسلمين على الكتاب

الأجانب الذى يعملون لتشويه الإسلام وحقائقه وتاريخه ويكتبون أوهاما وخزعبلات وأساطير ملفقة عن الحركات الإسلامية ودعاتها وحماتها ، ولقد قابلنى مدرس كبير منذ أمد يقول : لقد أشدت فى كتابك « الأزهر فى ألف عام » بالإمام عبد الله الشرقاوى وقد كتب عنه نابليون فى مذكراته يشير إلى أن الشرقاوى كان أهم عضد لفرنسا فى مصر . فقلت له يا سيدى : إنك لا تهدم الشرقاوى وإنما تهدم جهاد مصر الوطنى وتاريخها العظيم المشرف بهذا الأسلوب ، ونابليون كيف تجعله حكما على التاريخ المصرى ، وأمينا على جهاد المصريين والحكم على أعلام الإسلام ، وهنا نقول كلمة أخيرة هى ما سبق أن قلته للسيد محب الدين الخطيب حين عين فى سكرتارية « مجلة الأزهر » وليس هو بأزهرى : إن مجلة الأزهر يجب أن تظل بمنأى عن العصبيات وعن سواها من التيارات ، حتى تحتفظ بصبغتها الدينية التى قامت عليها .

صور من التاريخ الاسلامى

سبحانك اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء .

وهكذا شاءت إرادة الله ولا راد لمشيئته - أن تسقط بغداد عاصمة الخلافة العباسية فى أيدى المغول (التتار) عام ٦٥٦هـ-١٢٥٨م وأن ينتهى عهد العباسيين وسلطانهم ، ويذهب إلى الأبد حكمهم وعرشهم ، وأن يرث دولتهم التى شادوها بالسياسة والقوة والدهاء الوارثون ، ويخلفهم فى حكم العالم الإسلامى من كتب الله لهم أن يحكموه . وبقى العباسيون ودولتهم ذكرى مرددة وتاريخاً مروياً وعبراً ماثلة ، وأحاديث مأثورة ؛ يذكرها المسلمون باللوعة والعبرة والحسرة ، وبالأسف العميق ، لذهاب دولة إسلاميـــة كبرى ، كان لها من النفوذ الروحى والسياسى فى كل بقاع الإسلام ، ما ألف القلوب حولها ، وأبقى على الزمن مجدها وجلالها ؛ والله يرث الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

ويؤرخ سقوط بغداد عهدا جديدا فى تاريخ الأمة العربية ، فقد سقطت دولة الخلافة العباسية وفقدت الحضارة الإسلامية ركنا كبيرا من أركانها ، وأنقسم الشرق العربى إلى قسمين : قسمه الشرقى وهو العراق الذى فقد استقلاله وغدا ولاية مغولية ، وقسمه الغربى ،

ويتألف من مصر وسوريا (الشام) ، وقد احتفظ باستقلاله ، ودافع عنه دفاع المستميت المناضل ، وإن كان الحكم فيه قد أصبح فى أيدى طوائف الأجناد من المماليك وهم من أصول شتى ، ولكنهم ليسوا عربا ، وإن كانوا قد تعربوا على التدريج ؟ واعتنقوا الإسلام وأصبحوا من أكبر حماته والمدافعين عنه .

ووقف الجانبان أحدهما من الآخر موقف العداء والتحفز ، يحاول المغول فتح مصر وسوريا ويسعى المماليك لرد عدوان المغول ، وقد كان الفوز حليفهم ، وتم لهم النصر بعد جهود كبيرة وأخذوا يحاولون فتح بغداد ولكنهم فشلوا وتقطعت بين العرب أسباب التبادل التجارى والثقافى وضعفت قوتهم ، وخربت مدنهم .. وبسيطرة هذه الدول الأجنبية على الأمة العربية من مغول وفرس وترك ومماليك ، فقد العرب عزهم وسلطانهم ، وزحزحوا عن مكان الصدارة وانتقل من أيديهم زعامة العالم الإسلامى ، إلى شعوب أخرى .

كيف سقطت بغداد :

كانت الخلافة العباسية على عهد آخر خلفائها المستعصم بالله (٦٤٠ - ٦٥٦ هـ) تحكم العراق ، وتتمتع باحترام كبير من المسلمين فى شتى أنحاء العالم الإسلامى ، وكان يشاركها فى حكم الشعوب الإسلامية الدولة السلجوقية فى فارس ، والخوارزمية فى خوارزم ، والاسماعيلية فى اصبهان والروم السلاجقة فى أرمينية ، والاتابكية فى الموصل ، والايوبية فى مصر والشام .

وكان خطر المغول الوثنيين الهمجيين قد استفحل آنذاك فى شرق العالم الإسلامى ، وكانوا قد انسابوا من موطنهم الأصلى فى منغوليا إلى غرب آسيا ، فهاجموا بقيادة جنكيزخان الامبراطورية الخوارزمية وقضوا عليها ، ثم أخذوا يتقدمون نحو أملاك الخلافة العباسية ويهددونها تهديداً خطيراً . . وفى عام ٦٥٤ هـ قاد هولاكو جيشاً ضخما وزحف به على بغداد الغربية بخيانة الوزير ابن العلقمى ، الذى كان يشجع هولاكو على غزو العراق والاستيلاء على بغداد خوفا من ضياع سلطانه(١)، وفى يوم الأحد الرابع من صفر عام ٦٥٦هـ ١٠ فبراير ١٢٥٨م خرج الخليفة وأولاده الثلاثة وعشرة آلاف من كبار رجال الدولة ، وأعلنوا الاستسلام أمام هولاكو وجيشه وسلمت بغداد ، وجمع السلاح من أهلها ، ثم انقض عليها جيش هولاكو فقتلوا أهلها ، وخربوا مساجدها وقصورها ونهبوا كل ماوقعت عليهم أيديهم من أموال وتجارات وتحف وكنوز ، وبددوا تراثها العلمى فخربوا المكتبات والمدارس وأحرقوا الكتب أورموا بها فى دجلة ، وقدر المؤرخون عدد القتلى بنحو مليونين . . وبعد خمسة أيام من استسلام الخليفة ذهب هولاكو وأمراء جيشه إلى قصر الخلافة فنهبوه وأذلوا سيده وقتلوا الكثيرين من سكانه ،

(١) قيل إنه كان يريد نقل الخلافة إلى العلويين وقيل انه غضب للمذابح التى نزلت بالشيعة عام ٦٥٥ هـ ، وقيل إن المستعصم قدم عليه الدفتردار الصغير وغل يده بعد ان كانت فى قبضته جميع السلطات .

واستولوا على تحفه وكنوزه ، وفى الرابع عشر من صفر ٦٥٦ هـ - ٢٠ فبراير ١٢٥٨ م قتل هولاكو الخليفة المستعصم وولده الأكبر ، ثم أصدر أمره بتعقب أمراء الاسرة العباسية وقتلهم جميعا ولم ينج إلا أصغر أبناء الخليفة الذى أبقته زوجة هولاكو واسمه ، مبارك شاه ، وقد أرسل إلى سمرقند وتزوج من مغولية ، وأسرت إحدى بنات الخليفة وماتت فى سمرقند .

وفى مصرع بغداد والخلافة العباسية يقول شمس الدين الكوفى :

قف فى ديار الظاعنين ونادها	يا دار ما فعلت بك الأيام ؟
يادار أين الساكنون وأين ذ	اك البهاء وذلك الاعظام ؟
يادار أين زمان ربعك مونقا	وشعارك الاجلال والاكرام
يادار مذ افلت نجومك عمنا	والله من بعد الضياء ظلام
فلبعدهم قرب الردى ولفقدهم	فقد الهدى وتزلزل الإسلام
فتى قبلت من الأعادى ساكنا	بعد الأحبــة لاسقاك غمام

ويقول أيضا فى قصيدة أخرى :

ما للمنازل أصبحت لا أهلها	أهلى ولا جيرانها جـيرانى

ولقد أبقى هولاكو (ابن العلقمى) وزيراً ، واجتمع العلماء فى بغداد فى المدرسة المستنصرية حيث طرح عليهم هولاكو هذا السؤال .

أيهما أفضل ؟

السلطان الكافر العادل أم السلطان المسلم الجائر ؟ وأفتوا بأن الكافر العادل يجب أن يفضل على المسلم الجائر ، وكان هذا هو حكم القوة لاحكم الدين طبعاً . . وتم فتح العراق وخضوعه لسلطان المغول الوثنيين . وكان زوال الخلافة للعباسية نهاية لتاريخ مجيد حافل ، وخاتمة للحضارة الإسلامية التى ازدهرت فى ظلالها الآداب والفنون والعلوم والمعارف وانتهت مدنية كانت فى القرون الوسطى مصدر نور وهداية وخير للانسانية جمعاء وللعالم كافة ، وللامم العربية وغير العربية قاطبة ، وصارت بغداد التى كانت قلب الإسلام النابض أطلالا دراسة ، وصمتت فيها الألسنة ، وخرست الأفواه وماتت الحركة العلمية والأدبية بتدمير مدارسها ومكتباتها وإحراق مخطوطاتها وكنوزها العلمية ، وقتل الآلاف من أدبائها وعلمائها وتشريد باقيهم فى أنحاء الوطن الإسلامى غربى العراق وبذلك تخلت بغداد عن مركز الصـــدارة الأدبية والعلمية كما تخلت عن زعامتها الدينية والروحية(١) .

وظل المغول أمداً طويلا يتولون حكم العراق وفارس وشرقى

---

(١) راجع : ابن الأثير والذهبى ، والخميس للدياربكرى ، وتاريخ الخلفاء للسيوطى ، وتاريخ ابن خلدون ، وابن خلكان ، والفوات لابن شاكر ، والمختصر لأبى الفدا ، والسلوك للمقريزى ، ومحنة الاسلام الكبرى لمصطفى طه بدر ، وسواها من المراجع .

العالم الإسلامى وهم على وثنيتهم وجهالتهم ، لايستقيم لهم أمر ولا يطرد لهم نظام ، وسعت المسيحية ممثلة فى بابوات أوربا وفى ملوكها إلى هولاكو وخلفائه يعرضون عليهم اعتناق دين المسيح ويشرحون لهم تعاليمه ، ولكن غازان أعلن فى الرابع من شعبان ٦٩٤ هـ - ١٩ يونيو ١٢٩٥م اعتناقه للاسلام ، وأسلم بإسلامه نحو مائة ألف من أتباعه(١) واعتنق خلفاؤه الإسلام وباسلامهم أخذت العلوم الدينية والعربية تفيق من سباتها ، وظهر الأدب الصوفى فى إيران ، وأخذوا يشجعون العلوم والعلماء ، ويرفعون عن كاهل الشعب المظالم يكفرون بذلك عما قدموا من سيئات فى حق الإسلام وشعوبه .

انتصار مصر فى معركتها مع التتار :

١ — بسقوط الخلافة العباسية مد المغول سلطانهم إلى مشارف الشام وأصبحوا يحكمون شرق العالم الإسلامى والعراق كله ، ويهددون الشام ومصر تهديداً خطيراً .. وكانت مصر وسوريا إبان ذلك قد انتهى منهما حكم الأيوبيين وتسلمت أمورها دولة جديدة ، هى دولة المماليك إذ يرجع أصل المماليك إلى الغارات التى كان يشنها المسلمون على آسيا الصغرى ، فقد كان أسراهم من الشركس وغيرهم يباعون فى الأسواق ويتخذون عبيداً ، فاشترى الأيوبيون منهم أكثر من إثنى عشر ألفا ، واتخذوا منهم حرساً لهم ، ومالبثوا أن زاد نفوذهم فى الدولة الأيوبية ، واستفحل خطرهم فقتلوا الملك المعظم توران شاه

---

(١) ص ١٦ مغول ايران بين المسيحية والاسلام مصطفى طه بدر

عام ٦٤٨ هـ - ١٢٥٠ م وانقضت تسع سنوات بعد ذلك تنازع فيها الأيوبيون والمماليك العرش ، حتى خاص أخيرا لقطز عام ٦٥٧ - ١٢٥٩ م ، وكان من قبل نائب الملك المنصور . ويعد قطز المؤسس الحقيقي لدولة المماليك ، وفى أول حكمه كان التتار قد استولوا على الموصل ثم غزوا الشام فاستولوا على حلب وتقدم هولاكو ففتح دمشق وسواحل الشام البحرية ، وتقدم إلى مصر وبعث بمنشور إلى قطز يقول فيه :

« يا أهل مصر أنتم قوم ضعاف ، فصونوا دماءكم منى ولا تقاتلونى أبداً فتندموا » .

وسخر قطز من هولاكو وسار من القاهرة بجيش ضخم لملاقاة جيش هولاكو والتحم الجيشان فى معركة (عين جالوت) على أرض فلسطين ، وفى يوم الجمعة ٢٥ من رمضان ٦٥٨ - ١٢٦٠ م انتصر الجيش المصرى انتصاراً باهراً وسحق الغزاة الذين كانوا يريدون أن يدنسوا أرض الوطن بأقدامهم ، وعاد قطز وأكاليل المجد فوق رأسه إلا أن بيبرس قائده اغتاله فى الطريق وتولى عرش مصر بعده عام ٦٥٨ هـ .

٢ - وبهذا النصر المؤزر انتهى إلى الأبد خطر المغول على العالم العربى وسحقت قواتهم العسكرية ، وأبيدت الخرافة القائلة بأنهم لا يغلبون وتسلمت مصر زعامة العالم الإسلامى وأصبحت هى المدافعة عن مجد المسلمين وكيانهم .

انحياز الآداب العربية إلى مصر :

فى وسط هذه الزعازع الهوج ، والأعصاير السود والمحن القاتمة ، التى أصابت بغداد وخلافتها انبثق الفجر من جديد يؤذن فيه المؤذنون بسلامة الوطن العربى الاسلامى ، ويهنئون مصر وقادتها بانتصارهم المؤزر ، وتلفت العالم الإسلامى ليلقى بمقاليد زعامته إلى الأبطال الميامين ، والأشاوس الصيد من أبناء مصر .. ووقف العلماء والأدباء والمفكرون ورجال الفنون وسط الاضطرابات الثائرة التى أصابت العراق واهله وخلال موجة الارهاب والحكم الغاشم الجاهل، والغزو المدمر المبير ، وقفوا يتطلعون إلى بغداد التى كانت مثابة لهم ، فرأوا السيف مصلتا ، والدمار يعصف بكل عزيز ونفيس من ثروات المسلمين وآثارهم التى كانت مفخرة للشعوب الإسلامية جميعا ، بل للانسانية كافة وشاهدوا كنوز علومهم وآدابهم يقذف بها قذفا فى نهر دجلة ، ويحرق ماتبقى منها أو تمزق بالأيدى ويداس عليها بالنعال ، وتلفتوا فوجدوا الحرمات مهدورة والأرواح مسفوكة ، والحرمات منهوكة ، والأفواه مكممة ، والألسنة خرساء .. حينئذ أخذوا يحاولون الفرار بكل وسيلة من العراق وسفاحيها الأشرار ، وتطلعوا بأبصارهم فلم يجدوا مأمنا يلوذون به ، وينعمون بالأمن والسلامة والحرية فيه غير مصر والشام ، فاتجهوا إليهما ، وهم فى حياطة حاكم مصر قطز ، وفى حراسة جندها البواسل . اتجهوا إليها ليقيموا دولة عربية للعلم والأدب ، وللدين ولغة العرب .

وتمادى خطر المغول على الشام فأخذ من بقى فيها فى الهجرة إلى

القاهرة ، ثم كانت معركة عين جالوت الفاصلة ، فأمن الخائفون ، وهدأ المفزعون وسكن الحائرون ، وصارت القاهرة مقصد الناس وملجأ العلماء من كل مكان ، وزاد من شأنها أن سلطانها بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ) أحيا فيها الخلافة عام ٦٥٩ هـ من جديد . فدعا أحد أبناء الخلفاء العباسيين ، الذين فروا من هولاكو ، واسمه أحمد بن الخليفة الظاهر العباسى ، وبايعه بالخلافة ، ولقبه بالمستنصر بالله ، وأصبحت القاهرة من جديد مقر الخلفاء العباسيين ، وصار لهم النفوذ الروحى على جميع بلاد الإسلام ، وإن السلطان السياسى بقى بيد بيبرس وخلفائه من المماليك .

نزل العلماء والأدباء مصر التى احتلت مكانة العراق وأقاموا فى القاهرة التى احتلت مكانة بغداد وبها يومئذ عدد ضخم من المدارس والمعاهد والمجالس العلم ، وبها ماشاءوا من المكتبات ونفائس آثار الإسلام . نزلوا بها فوجدوها حرما آمنا ، وموطنا كريما ؛ ولاقوا فى إقامتهم من عطف المماليك ماحبب اليهم البقاء ، فانبسطت نفوسهم ، واطمأنت قلوبهم وطاب لهم المقام ، وأخذوا يكتبون ويؤلفون وينثرون وينظمون .

وقد هاجر إلى القاهرة فى غضون هذه الفترة عدد لايحصى من من علماء الشرق الاسلامى والعراق والشام ، وعدد آخر غير قليل من علماء الأندلس وأدبائها ، فارين من وجه الأسبان المتعصبين ، الذين استولوا على المدن الاسلامية فى الأندلس من أيدى العرب ، وأذاقوا المسلمين هناك سوء العذاب ، وساموهم الوبال والنكال الشديد .

وكانت مصر آنذاك قد بسط المماليك فيها سلطانهم ، وأقاموا فيها دولتهم الناشئة الفتية ، وهم قوم أشداء ، مارسوا الحروب والفروسية واعتادوا الخشونة وبعد الكثير منهم عن الترف . وأخذوا يصبغون ملكهم صبغة دينية إذ حسب يسندهم ولا ماضى يعضدملكهم ولا تاريخ يؤيدمازعموه من حق لهم فى حكم العالم الإسلامى فأقبلوا على بناء المدارس والمساجد وتقريب العلماء والإغداق على الأدباء وإقامة الملاجىء والبيمارستانات وحبس المال الوفير على نواحى الخير والبر ، ودفعوا العلماء إلى نشر العلم بالتدريس والتأليف . وكان لهم من ذلك ومن انتصاراتهم على التتار وعلى الصليبيين فى أرض الشام مفاخر ومآثر لا تبلى . وزاد من عظمة أمرهم فى عيون المسلمين أنهم أصبحوا حماة الخلافة الإسلامية المكلومة وملاذ الأمم العربية المهزومة ، ومقصد الأحرار والعلماء من كل مكان .

ولولا عواصف الحروب . وزعازع الخلافات التى كانت تثور بين قواد المماليك الفينة بعد الفينة ونكبات الأمراض والأوبئة العامة والسنين المجدبة لتغير وجه التاريخ ولكان للآداب وللغة العرب شأن فإن الآداب والفنون لا تزدهر إلا فى ظلال السلام والأمن والهدوء والرخاء والرفاهية فلا يمكن لشاعر أن يغرد والسيوف مشرعة ، كما لا يمكن للبلبل أن يصدح والسهام نحوه مصوبة .

هجرة وهجرة :

وهجرة العلماء هذه شبيهة من بعض نواحيها بهجرة علماء اليونان إلى إيطاليا بعد سقوط القسطنطينية فى أيدى الأتراك العثمانيين عام ٨٥٧هـ ، إذ أحياهؤلاء نهضة العلوم، وبعثوا فى أوربا حركة جديدة وحياة علمية مستحدثة ، بدراستهم اليونانية وترجمتهم من جديد لآثار فلاسفتها . وقد غيرت هجرتهم هذه الكثير من وجوه الحياة الأوربية ودفعت الناس إلى التخلص من أغلال القرون الوسطى وأوزارها ، وإلى التفكير فى إصلاح معيشتهم ، وطرائق حياتهم ، وألوان علومهم وفنونهم ومذاهب دينهم .

وهجرة علماء المسلمين إلى القاهرة دفعت كذلك بأيدى العلوم والآداب والفنون ، فأخذت النهضة الأدبية والعلمية يطرد سيرها ، ويسرع خطوها ويعظم شأنها ، ولكنها مع ذلك لم تغير كالهجرة السابقة شيئاً من معالم الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية السائدة فى العالم الإسلامى ، ولم تمتد آثارها الأدبية والفكرية إلى غير مصر والشام .. وحسبها أنها أحدثت نهضة دينية وعلمية وأدبية وفق ما كانت تسير فيه من خطة مرسومة أو شبه مرسومة ، ومقدمة ابن خلدون — نزيل مصر فى أيام السلطان برقوق — التى أودعها خلاصة تجاربه وثمرات تفكيره والكثير من الآراء الاجتماعية والسياسية ووسائل إنهاض الشعوب وإصلاح طرائق التعليم ، لم تنفذ إلى نفس غيره من علماء عصره ، ولم يظهر لدعوته هذه أثر فى الفكر

الإسلامى العربى ، ولا فى الحياة المصرية ، لأن النزعة إلى الإصلاح لم تكن عامة والرأى العام لم يكن قد استكمل وسائل النهوض والنضوج ولأن الشعور بالحاجة إلى الإصلاح لم يوجد بعد .

ولا شك أن الحركة العلمية والأدبية كان من عواملها هذا التشجيع الرسمى الذى ذكرناه ، ثم الشعور الدينى القوى الذى بعث فى العلماء روح الإقدام والعزم والتضحية والعمل من أجل استعادة مجد الثقافة العربية الإسلامية ، وانتشر صيت مصر والقاهرة ، وأزهرها المتيد فى كل مكان ، حتى ليقف عالم سودانى من خريجى الأزهر فى سنار ليمدح أحد ملوك الفرنج ، وهو السلطان بادى أبو ذقن فيقول :

أيا راكبا يسرى على متن ضامر
إلى صاحب العلياء والجود والبر
ويطوى اليه شقة البعد والنوى
ويقتحم الأوعار فى المهمه القفر
وينهض من مصر وشاطىء نيلها
وأزهرها المعمور بالعلم والذكر
الك الخير إن وافيت سنار قف بها
وقوف محب وانتهز فرصة الدهر
وَألق عصا التسيار فى صرح أفقها
تجد كل ما تهوى النفوس من البشر

لقد شجع مماليك مصر النهضة الدينية والعلمية على أن تسير بخطى واسعة فى سبيل استكمال حاجات المجتمع العربى الروحية والثقافية . ودفعوا العلماء إلى التأليف بما بذلوا لهم من مال وجاه ، وأسندوا إليهم من مناصب ، فامتلأت خزائن الكتب ودورها بنفـــائس المؤلفات وجليل الآثار ، وزاد اهتمامهم بالعربية فجعلوها لغة رسمية وأحاطوا ديوان الإنشاء برعايتهم واهتمامهم ، ثم أنشأوا المدارس والمساجد وحلقات العلم التى أمر المتعلمون من كل مكان ، وأصبحت تزخر بالطلاب يقصدونها من جميع الممالك الإسلامية . ينهلون معينها العذب ، ويرتشفون من ينابيعها الثرة ، ورتبت لهم المرتبات والجوائز وحبست عليهم الأوقاف ، وأصبحت مدن القاهرة والإسكندرية وقوص والفيوم . ثم دمشق وحلب وحماة وحمص تحتل مكانة بغداد وقرطبة وجرجان وأصفهان وبخارى وسواها .

من كفاح الاسلام

فى القرن السابع الهجرى

كان القرن السابع الهجرى عصر الأحداث الكبرى فى تاريخ العالم الإسلامى ، ففيه انتهت دولة الأيوبيين من مصر عام ٦٤٨هـ - ١٢٥٠م وفيه سقطت الخلافة العباسية فى بغداد أمام الغزو التترى عام ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م وفيه هزم الجيش المصرى التتار فى معركة عين جالوت هزيمة ساحقة عام ٦٥٨ — ١٢٦٠ م .

وقد اشتهر من حكام فى هذا القرن الملك العادل أخو صلاح الدين الأيوبى (٥٩٦ — ٦١٦ هـ) ، وابنه الملك الكامل (٦١٦ — ٦٣٥ هـ) والأمير عز الدين أيبك التركمانى مؤسس دولة المماليك البحرية فى مصر عام ٦٤٨ هـ ، والملك المظفر قطز صاحب الفضل فى هزيمة التتار فى عين جالوت وقد حكم مصر عامين (٦٥٧ — ٦٥٨ هـ) ، والظاهر بيبرس (٦٥٨ — ٦٧٦ هـ) والمنصور قلاوون (٦٧٨ — ٦٧٩ هـ) ، وأخوه الناصر قلاوون (٦٩٣ — ٧٤١ هـ) .

ومن الأحداث البارزة فى تاريخ مصر فى هذا القرن ، نقل الظاهر بيبرس الخلافة العباسية من بغداد إلى القاهرة حيث دعا أحد أولاد الخلفاء العباسيين الذين فروا من وجه التتار من بغداد وبايعه بالخلافة عام ٦٥٩ — ١٢٦١ م ولقبه بالمستنصر ، واستمد سلطته

منه نائبا عنه فى حكم مصر ، وكان أول من بايع الخليفة العباسى ، هو شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ، وقد ذهب الخليفة على رأس جيش مصرى ضخم لمحاربة التتار فقتل قرب حدود العراق عام ٦٦١هـ ، فتولى بعده الخليفة العباسى أبو العباس أحمد ولقب الحاكم بأمر الله . واشتهر هذا القرن بغزوات الصليبيين لمصر ، وهزيمة الأيوبيين لهم هزائم ساحقة كانت مقدمة لهزائم المماليك البحرية للتتار .

وهنا نستطيع أن نقسم التصوف فى هذا القرن ثلاث طبقات :

فطبقة يوصف أفرادها بالفكر وسعة العقل ، إلى جانب أنهم موصوفون بالوجد والذوق ، وهؤلاء هم الممتازون من المتصوفة ، كشهاب الدين السهروردى المقتول بالشام وعمر بن الفارض فى مصر واضرابهم .

وطبقة أخرى جمع أصحابها بين التصوف والفقه كعبد الرحيم القنائى وتلميذه الصباغ وغيرهما من أولياء مصر فى ذلك الوقت .

وطبقة ثالثة هى طبقة الدراويش . ومنهم الدمامينى وابن أبى الحديد وسواهما . لكل من هؤلاء حال ومقام وحكم خاص به .

وقد ظهر فى مصر فى هذا العهد كثير من المتصوفة الخالدين أمثال : أبى الحسن الصباغ ، وابن الفارض ، وأبو الحجاج الأقصرى ، وأبو الحسن الشاذلى ، والسيد أحمد البدوى ، وإبراهيم الدسوقى ، وشرف الدين الأخميمى ، وأبى العباس المرسى الأنصارى ، والمرشدى ،

وإسماعيل الانبابى ، وموفق الدماميني ، وغيرهم من أعلام التصوف الإسلامى المصرى الذين حفل بهم القرن السابع الهجرى والذين بقيت مدارس بعضهم حتى اليوم .

ومن مظاهر نشاط الصوفية العمليين فى هذا العصر أن اجتمع الأولياء فى وقعة الإفرنج بالمنصورة التى أسر فيها لويس التاسع أيام الملك الصالح فى صفوف جيش مصر ، وقد جلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام والشيخ مكين الدين الأسمر ، والشيخ تقى الدين ابن دقيق العيد ، وأضرابهم وقرئت عليهم أبواب الجهاد فى رسالة القشيرى وصار كل واحد يتكلم ، إذ جاء الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنهم ، فقالوا له : نريد أن تسمعنا شيئاً من معانى هذا الكلام ، فقال : أنتم مشايخ الإسلام وكبراء الزمان . وقد تكلمتم فما بقى لمثلى موضع كلام ، فقالوا له : بل تكلم لحمد الله ، وأثنى عليه وشرع يتكلم ، فصاح الشيخ عز الدين من داخل الخيمة ، وخرج ينادى بأعلى صوته . هلموا إلى هذا الكلام القريب العهد من الله فاسمعوه .

وكان يعاصر الصوفية المصريين فى هذا العهد أفذاذ من رجال التصوف فى العالم الإسلامى ، من بينهم جلال الدين الرومى وقد مات بقونية من أعمال آسيا الصغرى ، وبها كانت طريقته المعروفة بالطريقة المولوية ، وهو صاحب المنظومة الشهيرة « مثنوى » ، والكتاب النثرى « فيه ما فيه » ، وسيدى محي الدين بن العربى ، وقد زهد وتعبد

وساح وألف ودرس ودخل مصر والشام والحجاز والروم . وكان شيخ الإسلام بمصر الشيخ عز الدين بن عبد السلام يجله ويعترف له بالمنزلة العالية ، وأبو محمد المهدى التونسى ، والسهروردى البغدادى ، وفريد الدين العطار الشاعر الفارسى المشهور المتوفى فى سن السبعين فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى ، ودفن فى شادياخ جنوبى نيسابور ، والسعدى الشيرازى وحافظ الشيرازى وله ترجمة طويلة فى كتاب تاريخ الأدب الفارسى ، رضى الله عنهم أجمعين .

من كفاح الاسلام

فى العصر الحديث

شهد القرن الثالث عشر الهجرى فى مصر أحداثا خطيرة ، منها الحملة الفرنسية على مصر ١٢١٣ هـ - ١٧٩٨ م ، وحكم محمد على ١٢٢٠هـ-١٨٠٥ م ، وهزيمة الإنجليز فى رشيد عام ١٨٠٧ م ، ومذبحة المماليك عام ١٨١١ ، وما تلا ذلك من فتوحات باهرة ، وأعمال حربية ، قام بها الجيش المصرى فى عهد محمد على وإسماعيل ، وقد شهد آخره الثورة العربية ١٢٩٩ هـ - ١٨٨٢ م .

وفى أوائل هذا القرن أى فى عام ١٢٠٩ هـ - ١٧٩٥ م قام شيخ الأزهر الشيخ الصوفى الصالح عبد الله الشرقاوى ، بثورة شعبية ضد المماليك ، فقد شكا إليه أهل قرية من قرى بلبيس ،ظلم أتباع محمد بك الألفى لهم ، وطلبهم منهم أموالا لا طاقة لهم بها ، فتألم الشيخ ، وحضر إلى الأزهر وجمع المشايخ : وأبلغ الأمر إلى إبراهيم بك ومراد بك ، وأمر الناس بالإضراب العام ، وركب ثانى يوم إلى بيت الشيخ السادات ووراءه الشعب،فأرسل إبراهيم بك نائبه أيوب بك الدفتردار فوقف بين يدى الشيخ ، وسأل العلماء عن مرادهم فقالوا : نريد العدل وإبطال الحوادث والضرائب التى ابتدعتموها ، فرفض أيوب بك طلبهم ، وذهب ليبلغ إبراهيم بك مطالبهم ، وذهب السادة العلماء إلى الأزهر ودخلت جماهير الشعب ، فاعتصمت به ، فأرسل مراد بك

إلى الشيخ يقول : أجيبكم إلى طلباتكم ماعدا طلبين ، وطلب أن يقابله أربعة مشايخ حددهم ، ورجاهم فى السعى فى الصلح ، وانعقد مجلس بعد ذلك من الأمراء والمشايخ فى بيت إبراهيم بك ، وفيهم الشيخ الشرقاوى ، وعقدوا صلحاً على رفع المظالم ، وأن يكف المماليك أيديهم وأيدى أتباعهم عن أموال الشعب ، ويسيروا فى الناس سيرة حسنة ، وكتب القاضى حجة بذلك ووقع عليها الباشا والأمراء ، ونودى فى الشعب : « حسب ما رسمه سادتنا العلماء بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس باطلة من الديار المصرية .

وفى ١٣ صفر عام ١٢٢٠ هـ — ١٨٠٥ عقد الشيخ الشرقاوى والعلماء مؤتمراً وطنياً ، وقرروا عزل الوالى التركى . ولما رفض التخلى عن الحكم أعلنوا الحرب عليه ، وكانت الأوامر تصدر باسم السيد عمر مكرم والعلماء بصفتهم وكلاء الأمة ، وأخيراً أجبروه على الإذعان لقرار الأمة فى ٢٩ جمادى الأولى عام ١٢٢٠ هـ .

وقد قاد الشيخ السادات شيخ السادة الوفائية ثورة القاهرة الأولى ضد نابليون وجيشه فى جمادى الأولى ١٢١٣ هـ أكتوبر ١٧٩٨ حيث كان رئيساً لمجلس الثورة ، وقاد السيد عمر مكرم نقيب الأشراف الثورة الثانية فى ٢٣ شوال ١٢١٤هـ - ٢٠ مارس ١٨٠٠م حيث كان هو الرأس المفكر لثورة القاهرة الثانية ، ووقف مواقف خالدة فى التاريخ المصرى ، جديرة بعظمة مكرم وبطولته ، وقد ولد عمر مكرم عام ١٧٥٥ م وتوفى عام ١٢٣٧ - ١٨٢٢ م وقد تولى الثورة ضد الوالى

التركى خورشيد باشا ، وقرر عزله ، ورتب شئون الحرب التى أعلنها حتى أقيل . ولما تولى الحكم محمد على وبدأ يتنكر لصاحب الفضل عليه عمر مكرم ونفاه إلى دمياط وخلعه من نقابة الأشراف ، عام ١٨٠٩ - ١٢٣٤ هـ ، قال عمر مكرم : أما منصب النقابة فإنى راغب عنه وزاهد فيه ، وليس فيه إلا التعب ، وأما النفى فهو غاية مطلوبى لأرتاح من هذه الورطة . ولكنى أريد أن أكون فى بلدة لا تدين لحكم محمد على .

هؤلاء الصوفيون من العلماء هم الذين حملوا عبء الجهاد الوطنى فى سبيل آمال الشعب ومطالبه ، ونالهم ما نالهم من عذاب وتضحيات ، فى سبيل الرسالة العظيمة التى حملوها . وكان الصوفيون وعلماء الأزهر الشريف ، هم الذين ساندوا بعد ذلك حركة عرابى التحريرية الكبرى ؛ فكان الشيخ حسن العدوى والشيخ عليش المصرى رضى الله عنهما ، من زعماء الثورة العرابية العاملين ، وقد لقيا فى جهادهما مع عرابى كثيراً من التضحيات ، وانتهى الأمر بنفى الشيخ حسن العدوى فى بلدته (العدوة) بمغاغة ، وتحديد إقامة الشيخ عليش شيخ المالكية وقتئذ ، وكان يسفر بينهما فى معتقليهما تلميذهما وأخوهما البار المجاهد الشيخ محمود أبو عليان الشاذلى ، الذى ورث دعوتهما العلمية والروحية ، وكان ممن اشترك فى ثورة عرابى كذلك الشيخ محمد القاياتى ، والشيخ أحمد القاياتى ، وقد أصدر العلماء فتوى شرعية بعزل الخديوى توفيق بتوقيع الشيخ محمد الإنبابى شيخ الأزهر ، والشيخ عبد الله الدرسناوى مفتى الحنفية ، والشيخ محمد عليش مفتى المالكية ، والشيخ يوسف الحنبلى مفتى الحنابلة ومفتى الأوقاف ، والشيخ عبد الهادى الإبيارى ، والشيخ

محمد الأشمونى ، والشيخ خليل العزازى ، والشيخ مسعود النابلسى ، والشيخ محمد القلداوى ، والشيخ زين المرصفى ، والشيخ عمر القلعاوى والشيخ عثمان مدوخ ، والشيخ عبد الرحمن السويسى ، والشيخ محمد الهجرى ، والشيخ يوسف شرابة ، والشيخ محمد السملوطى ، والشيخ أبى العلا الخلفاوى ، والشيخ عبد القادر الرافعى ، والشيخ عبد القادر الدلبشانى والشيخ أحمد الخشاب ، وكان من زعماء الحركة كذلك الشيخ محمد عبده والسيد عبد الله النديم ، وقد ظهر فى هذا العصر الكثير من أعلام الصوفية ، نذكر منهم على سبيل المثال :

الشيخ أبو عليان الشاذلى (١٢٥٦ - ١٣٢٦ هـ) وهو مولود بإحدى قرى مركز أدفو بأسوان ، ومدفون بالدار المحمدية بالقاهرة ، وهو واضع الحجر الأول للعشيرة المحمدية .

الشيخ محمد أبو السعود البكرى المتوفى عام ١٢٢٧ هـ وقد اشتهر ذكره وسار سيراً حسنا ، مقرونا بالكمال ، جازيا على نسق نظامهم ، وكان يتحاكم لديه خلفاء الطرق فيفصل بينهم بقوانينهم .

الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣) وهو صوفى ورع وإمام إسلامى جليل .

الشيخ محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقى المالكى الأزهرى ، توفى عام ١٢٣٠ هـ ودفن بتربة المجاورين .

محمد الأمير المالكى (١١٥٤ - ١٢٣٢ هـ) .

(الشيخ محمد الأشمونى الشافعى (١٢١٨ - ١٣٢١ هـ) .

الشيخ البحراوى عبد الرحمن (١٢٣٥ - ١٢٩٥) .

شوقى .. وتاريخ العرب فى الإسلام

— ١ —

رحم الله شوقياً وأسكنه جنان الخلد !

لقد كان صوتا رفيعا من أصوات العروبة القوية الموقظة وكان سيفاً من سيوف الإسلام المجلوة البتارة وكان لاتشق له غبار فى الذياد عن العرب ، والدفاع عن الإسلام وكتابه الحكيم ولغته الفصحى .

كان « شوقى » ذاقلب كبير ، وروح محلق ، ولسان وبيان ، نضر الله بهما صفحة الأدب ولغة العرب ، وحفظ بهما تراث الإسلام والمسلمين قشيبا رائعا عظيما .

كان حبه كله لبلاده ، وإخلاصه كله لوطنه الإسلام ، وكان قلبه لايتعلق بشىء إلا بمحبة الدين والوفاء للغة العرب الميامين .

وقصائد شوقى وفرائده ، فى الإسلام وتاريخه ومآثره ومفاخره وفى الاعتزاز بكتابه الخالد ، وبلغته المبينة الفصيحة ، وبحملة رسالته فى القديم والحديث . . ظلت وستظل منهلا عذبا ينهل منه الواردون والشادون ، ويأخذ الحكمة منه السابقون ممن أتوا بعده واللاحقون . وما أحوج الشباب العربى فى كل مكان إلى الاغتراف من بحره وقراءة مانظمه وما كتبه فى الحكمة والآداب والتاريخ وغيرها من فنون شعر شوقى وآدابه .

أمير الشعراء سبق جيلنا فى الدعوة إلى بناء الحاضر الممتد لشعوب الإسلام على أساس قوى متين من تراث العربية وثقافتها وماضيها الزاهر ، وفى المناداة بوحدة الشعوب الإسلامية والعربية وإخائها ، وفى تعظيم شأن العرب وقوميتهم الجامعة العتيدة ، وفى الدعوة إلى اشتراكية الإسلام المثلى بما تحتوى عليه من حب وعدل وإخاء ومساواة ومثل كريمة عالية رفيعة .

— ٢ —

وهنا نتحـــدث عن آراء شوقى وآياته الخوالد ، فى كتاب « دول العرب وعظماء الإسلام » الذى نظمه فى منفاه بالأندلس إبان الحرب العالمية الأولى ، والذى قصره على الحديث عن تاريخ الإسلام وبطولات أعلامه الخالدين ، وقد طبع الكتاب لأول مرة فى القاهرة عام ١٩٣٣ بعد وفاته . وكله من بحر الرجز العـذب المستساغ .

يقول شوقى فى مقدمة هذا الكتاب ، أو الديوان ، على حد سواء ، مشيراً إلى الحرب العالمية الأولى ، ويذكر تأليفه هذا الديوان فى منفاه :

لما رمى الله بهذى الحرب ... على بنى الشرق وأهل الغرب
تحركت سواكن الاقدار ... واطردت عوامل الاكدار
وحكم الله بهجرة الوطن ... وطالما ابتلى بها أهل الفطن

فكنت استعدى على الهموم بنـــات فكر ليس بالملموم
حتى أراد الله أن نظمت من سير الرجال ما استعظمت
واخترت بحرا واسعا من الرجز
قد زعموه مركبا لمن عجز
يرون رأيا وأرى خلافه الكأس لا تقوم السلافة
وقيمة اللؤلؤ فى النحور بنفسه وليس بالبحـــور
شعر لزمت فيه مالا يلزم وتركه أليق بى وأحزم

وهو هنا يشير إلى مجمل منهجه فى الكتاب من حيث الموضوع والشكل . . وان كان لم يستطع الافصاح كل الافصاح من قيمة عمله الفكرية والأدبية والفنية على حد سواء ، وقد يكون مبعث ذلك أن الشاعر غير الناقد ، وأن حديث الشاعر عن شعره قلما يكون ذا قيمة نقدية كبيرة وعلى العموم لحلاوة ديباجة (شوقى) وعذوبة اسلوبه هنا أكبر من مغزى كلامه ومعناه .

وسأتناول بعض آراء شوقى فى هذا الديوان بالدراسة والتحليل والنقد ، لأهميتها ، ولأن هذا الديون هو من أروع ما نظمه شوقى ، ومن أروع مايمكن أن يكتبه شاعر ليقرب التاريخ إلى عقول الناس وليتخذ منه مادة لأدبه وموضوعا لشعره .

شوقى واللغة العربية :

يحتوى الديوان على قصيدة جميلة عن العربية عنوانها : (لغة العرب) ، مجد فيها شوقى لغة القرآن وعذوبتها وفصاحتها ، وأشار إلى أطوار تهذيبها ، ونزول القرآن بها ، وحملها الرسالته وثقافته وحضارته ، واستعارتها من فارس واليونان مااستعارته من معرب منقول ، ودعا الشباب العربى إلى التزود من ثقافات العرب والعربية بكل جليل ورفيع ، داعيـــا إلى ترك الزيف من دعوات الداعين لهدم تراثنا والانتفاض على قديمنا ، وإلى الأخذ بطرف من كل جديد مفيد ، وإلى الإقبال على القرآن والحديث إقبال المستفيد المسترشد ، لما فيهما من حكمة وأدب وبلاغة .

يقول شوقى فيما يقول من هذه القصيدة الفريدة :

لسانك الأول فى الكتاب	ولغة الصبوة والعتــــاب
لخض عباب فقهه وسره	وغص على صحيحه وحره
لا ترض منه مبلغ الرعاع	وحصة الأعمى من الشعاع
واقرأ علوم السلف الأعلام	فانها معـــالم الكلام
رب قديم كشعاع الشمس	ابن غد واليوم وابن أمس
وخـــل ما زيفت الليالى	وما نفت صيارف الأجيال
ولا تضع من الجديد كله	يفتك وضع الشىء فى محله
رب جديد عنده المعول	ورب كنز لم يثره الأول

إن طريق العقل لا يسد ومذهب الأفكار لا يحـــد

وما أعظم مارسم شوقى هنا من منهج لغوى يحافظ على اللغة ، وإن كان لا يتنكر للتجديد المقبول المعقول الذى يقره أئمتها سواء فى مفرداتها أو قواعدها ، ولا يمكن أن يقبل هذا التجديد اليوم إلا إذا كان مدروساً ، وإلا إذا أقرته مجامع اللغة العربية الموجودة فى مختلف بلاد العروبة . وهنا أقول وأنادى بأنه ما أحب إلى وإلى كل حريص على مجد العروبة وتراثها أن يقوم فى مكة مجمع لغوى يعمل من أجل لغة القرآن الحكيم ، كما قامت مجامع من قبل فى القاهرة وبغداد ودمشق ولست بالسابق إلى مثل هذه الدعوة ، فإن علما عظيما كريما من أعلام العروبة ، قد دعا إليها من قبل ، وهو الشيخ محمد سرور الصبان .

إن شوقى فى هذه القصيدة كان يصدر عن عقل حصيف وتجربة حكيمة ، وفكر مضىء .

وقد دعا شوقى إلى تسجيل تاريخ العرب بالشعر وفضل الشعر التاريخى ، والنثر التاريخى على كتابات المؤرخين الذين يسجلون الأحداث فحسب ، وذلك فى قصيدة له فى هذا الديوان ، عنوانها « التاريخ » .

ويشير شوقى فى قصيدته الرائعة الفريدة « الوطن » إلى سيادة العرب والعربية بعد الإسلام حيث يقول :

وانجز الله النبي وعده ... وساد قومه الزمان بعده
فورثوا قيصر فى المشارق ... وأخذوا الغرب بسيف طارق
وأمنوا الأمصار فاتحينا ... وعدلوا فى العالمين حينا
واتخذوا كل القرى أوطانا ... وحاسنوا الأهلين والقطانا
فحيث حل العربى حيا ... من الملا قبيلة وحيا
وشاطر الأرض على التساوى ... محاسن الأقوام والمساوى
حتى انقضى سلطانهم وزالا ... وفضلهم باق ولن يزالا
وذلك اللسان باق لم يزل ... يمضى عليه من جلا ومن نزل
لم يبق منهمو سوى الاصوات ... وعجب تكلم الأموات

البيت الحرام :

وقصيدة شوقى فى هذا الديوان عن البيت الحرام تنبىء بحبه للعرب والعربية وللاسلام وكتابه ولغته و بيته العتيق ، وقد تحدث فيها عن قداسة البيت وعظمته وتاريخه وسدنته من قريش أبناء اسماعيل ، ومن العرب الميامين الذين انتشروا فى كل صقع :

انتشروا قبائلا على الزمن ... ملء الحجاز والشآم واليمن

ويختم القصيدة ببيان أهمية البيت الحرام وجلالته حتى فى الجاهلية حيث يقول :

لاينطق الهجر به والافك ... ولا يحل للدماء سفك

وما أروع ما قال شوقى فى (البيت الحرام) .

شوقى والسيرة :

وإذا كان شوقى قد حلق فى قصيدته النبوية (البردة) فقد حلق هنا فى هذا الديوان فى مطولته الرائعة التى عنوانها : (السيرة النبوية) التى تحدث فيها عن الرسول حديثا عجبا جامعا . . فى طفولته وشبابه ورجولته وفى بعثته ورسالته وهجرته وغزواته . . صلوات الله عليه وسلامه ما بقى الزمان وطلع الجديدان .

تاريخ الإسلام فى الديوان :

ويمضى شوقى فى الديوان فى تسجيل تاريخ الإسلام تسجيلا رائعا فنيا جليلا ، فى قصائده :

(الخلفاء الراشدون) ، (خلافة أبى بكر) ، (خلافة عمر) ؛ (عمر وخالد بن الوليد) ، (مقتل عمر) ؛ (خلافة عثمان) ، (الخصمان) ، (أمير المؤمنين على) ، (معاوية) ؛ (عمرو بن العاص) ، (خالد بن الوليد) ، (دولة بنى أمية) ، (خلافة عبدالله بن الزبير) ، (البيعة للسفاح) ، (أبو مسلم الخراسانى) ، (الدولة العباسية) ، (أبو جعفر المنصور) ، (صقر قريش) (دولة الفاطميين) .

وفى هذه القصائد يسجل تاريخ الإسلام ، وملوكه وخلفاء المسلمين ، تسجيلا صادقا ، واعيا مؤثراً ناطقا ، ويصور الأحداث كما كانت تصويراً رفيعاً بليغا ، وينطق الزمن حتى لكأنه يتحدث عن أمجاد الإسلام وبطولات أبطاله وسير أعلامه .

وهنا نشير إلى أن اتخاذ شوقى القصيدة العربية موضوعا لتسجيل التاريخ كما يبدو فى همزيته فى الجزء الأول من ديوانه ، وفى هذا الديوان كان عملا جليلا كبيرا فى تجديد الشعر ، وفتح الأبواب أمام الشعراء ، وإمداد الشاعر بطاقات كبيرة من المعانى والأفكار والحكم الأصيلة ، ولا شك أن ذلك كان خطوة كبيرة من خطوات التجديد الشعرى عند شوقى ، وكان مقدمة لكتابة شوقى رواياته التاريخية التى تعد فتحا كبيرا فى الشعر العربى الحديث .

ونحن لا ننكر أن شعراء العربية القدامى سبقوا شوقيا فى هذا المضمار كما فعل ابن المعتز (م٢٩٦هـ) فى نظم تاريخ المعتضد (م٢٨٩هـ) وكما فعل ابن عبد ربه (م ٣٢٨ هـ) فى نظم تاريخ (الناصر) الخليفة الأموى الذى حكم الأندلس خمسين عاما (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) ، ولكننا لا نتجاهل أن شوقيا قد جدد الشعر العربى بنظمه لأحداث التاريخ الإسلامى وبطولاته وسير أعلامه وجدد طريقة الأقدمين فى كتابة السيرة وتسجيل تاريخ الإسلام منذ بدأ فجره يضىء آفاق الدنيا وأرجاءها .

رحمك الله ياشوقى فى الخالدين .

فلسفة الأخلاق عند ابن مسكويه

— ١ —

قبل أن نتعرف إلى فلسفة الأخلاق عند بن مسكويه نتساءل : ماهى الفلسفة ، وماهى الأخلاق ، وما الصلة بينهما ، ثم ننتقل إلى ابن مسكويه والتعريف به ليصح أن نتساءل بعد ذلك ماهى فلسفة الأخلاق عند هذا الإمام الكبير ؟ .

أما الفلسفة فكلمة معربة عن اليونانية ، وهى مأخوذة من كلمتين فيلوس ومعناها محبة ، وسوفيا ومعناها الحكمة ، فمعنى الكلمة إذن محبة الحكمة ، ومعنى الفيلسوف محب الحكمة ، وكان فيثاغورث (٥٨٢ - ٤٩٧ ق م) أول من سمى حب الحكمة باسم الفلسفة ، يقول بارتلمى سانتهلير فى مقدمة كتاب « الكون والفساد » لارسطو ترجمة أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد : «إن فيثاغورث لما سأله ليون طاغية سيفونيا عن عملة أجاب بأنه فيلسوف ، وهو اسم لم يسمع من قبل فى اللغة اليونانية ، ومعنى الفلسفة عامة قديما تأمل أسرار الكون الإلهية الأبدية الخالدة التى لاتتغير ، وكان الفلاسفة الإغريق الأول : طاليس وانكسمندر وانكسمينيس يسمون أنفسهم حكماء ، فأنكر ذلك عليهم فيثاغورث ، ودفعه تواضع العلماء إلى إطلاق اسم « فلاسفة » عليهم وعلى نظرائهم ، وعلى الأرجح كان سبب ذلك هو إيمانه بأنه

لا يصح أن تنسب الحكمة إلى غير الله ، فالحكيم وحده هو الله ، ومن ثم استبدل كلمة حكيم بكلمة فيلسوف أى محب للحكمة ، وقد تطور معنى الكلمة تطورا كبيرا على مختلف العصور .

والاخلاق كلمة جامعة تشمل الفضائل والمثل ، التى يعتنقها ويؤمن به صفوة الناس وأخيارهم والتى دعا إليها الأنبياء والرسل من القديم وحضت عليها الكتب السماوية المقدسة واصطفاها المفكرون وسيلة إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

ونعنى بفلسفة الأخلاق الأصول الأخلاقية التى يشرعها الفكر للسلوك الإنسانى ، مما يمت الأمر فيه إلى النظرة العميقة ، والفكرة الفلسفية البعيدة ، وذلك مما دعا اليه هذا الإمام الكبير ، والمربى الروحى العظيم ، والأستاذ الخالد ، من مثل آرائه فى الفضيلة وفى نواميس الاجتماع ، وفى أسس السعادة .

— ٢ —

ولقد كان الإمام ابن مسكويه أحمد بن محمد (٣٣٠ - ٤٢١هـ) الفارسى الأصل ، العربى النشأة والثقافة واللغة ، من أئمة الإسلام وأعلامه الخالدين ، عاش فى القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجرى إذ كان ميلاده بالرى ، ووفاته فى بغداد ، وقد تعلم على طريقة الدراسة العربية القديمة ، فدرس اللغة والنحو والصرف والشعر والأخبار والفلسفة والطب وعلم العدد ـ الحساب ـ وشارك فى علوم كثيرة .

حتى ذاع فضله وانتشر صيته فى كل مكان . وقربه إليه عضد الدولة ، وعينه خازناً لدار حكمته ، فصار أثيرا عنده مقربا لديه ، ونشر علمه وفضله فى آفاق ملكه .

عاش بن مسكويه فى العصر البويهى ، الذى ازدهرت فيه الثقافة والمعرفة ؛ فكان أحد الذين جمعوا بين ثقافات الإسلام وثقافات الإغريق ، وضموا طرفا من حكمة الروم والهند إلى حكمة العرب والفرس ، وكان اتصاله بالوزير المهلبى (٣٥٢ هـ) ، ثم بابن العميد الوزير (م ٣٦٠هـ) ، ثم بابنه أبى الفتح (م ٣٦٦هـ) ، ثم بعضد الدولة بن بويه بعـــد ذلك ، من الأسباب التى نمت تجاربه وحكمته وساعدته على الاتصال بكل الثقافات الإسلامية والدخيلة خاصة أنه عاش فى عصر انقسام الخلافة العباسية إلى دويلات وظهور القوميات المستقلة ، وأنه عمر طويلا ، حتى كثرت خبرته بالحياة وقد نشأت الفلسفة العربية الإسلامية منذ القرن الثالث ، وازدهرت فى عصر ابن مسكويه ؛ وكان من أئمتها أبو اسحاق الكندى (م ٢٥٢هـ) ، والمعلم الثانى الفارابى (م ٣٣٩هـ) وابن سينا (م٤٢٨هـ) وقد عاصره ابن مسكويه ، كما عاصر جماعة إخوان الصفا ، وسواهم من أعلام الفكر الإسلامى وقرأ للسالفين والأقدمين ، واطلع على أصول الفلسفة الاغريقية ، إلى ثقافته الإسلامية الرفيعة ، فصار يشار إليه بالبنان بين الفلاسفة والحكماء . ومن تأليفه فى الفلسفة . تهذيب الأخلاق ، ترتيب السعادات ، الفوز الأكبر ، الفوز الأصغر

ضاعة العدد ، وألف فى الطب كثيرا من الكتب ، وله فى التاريخ كتاب « تجارب الأمم » : وهكذا كان موسوعة فى كل فن ، ومرجعا فى كل علم ، وأستاذا كبيرا تتلمذ عليه ، وتخرج به أعـــلام الفكر الإسلامى فى القرن الخامس وما بعده .

— ٤ —

وكتاب « تهذيب الأخلاق » لابن مسكويه يعد أصلا فريدا من أصول الأخلاق الإسلامية ؛ وقد كتبه للعلماء ومحبى الفلسفة ليعالج به مشكلات الحياة والسلوك ، وليصل بالمطلع عليه إلى السعادة ، وقد تأثر فى منهجه فيه بالمعلم الأول أرسطو فى كتابه « الأخلاق » . والتهذيب يقسم إلى ست مقالات ، وكان له من تجاربه الكثيرة فى الحياة ما يدفعه إلى الكتابة فى الأخلاق ليرشد الناس للفضيلة والسعادة والطرق التى تؤدى إليها ، ويتضح هذا من عهده الذى كتبه لنفسه ، وهو مسطور فى كتاب « المقابسات للتوحيدى » (١) .

ومع أن شخصية ابن مسكويه شخصية فيلسوف مؤمن بنزعة الاختيار والتوفيق السائدة فى كتاباته ، إلا أنه اجتماعى يرى لعوامل كثيرة أن الإنسان لا يمكنه أن يعيش وحده ، وعلى كذلك لا يكتب فى الأخلاق ليسجل آراءه فحسب بل يكتب وهدفه الوصول عمليا لتعود الأخلاق الفاضلة والتخلق بها .

---

(١) ص ٣٢٣ - ٣٢٦ المقابسات نشره السندوبى

— ٤ —

ويرى ابن مسكويه أن للنفس ثلاث قوى ، كل واحدة منها قد يسوء أو يحسن استعمالها لظروف وأسباب متباينة ، فقد تجنح نحو الإفراط ، أو تهبط نحو التفريط ، فيكون ذلك كله شرا ورذيلة، وقد تكون وسطا معتدلة لا إلى هذا ولا إلى ذاك ، فيكون هذا خيرا وفضيلة ، وإذن فالنفس لها ثلاث فضائل رئيسية بعدد هذه القوى ، وتنتظم كل فضيلة منها فضائل جزئية تعود إليها، وبانسجام هذه الفضائل فيما بينها تكون فضيلة أخرى هي كمال الفضائل الثلاث السابقة ، لذلك أجمع الحكماء على أن أصول الفضائل هي: الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة ، كما قرر ذلك ابن مسكويه في « تهذيب الأخلاق » . ورأى أبو على بن مسكويه أن للنفس فضيلة أخرى هي أشبه بها ، وهي التشوف للعلم والمعرفة . والفضيلة عنده هي المعرفة كما ذهب اليه سقراط ، والرذيلة هي الجهل وقد ترك مذهب أفلاطون وأرسطو في ذلك . ويوضح ابن مسكويه رأيه في ذلك فيقول : « إن من الناس من لا يدرى كيف يحسن إلى نفسه التي هي محبوسة فيقع في ضروب من الخطأ لجهله بالخير الحقيقي أما من عرف لنفسه كرامتها واختار لها الخير الحقيقي الذي يناسب جزءها الإلهي وهو العقل ، فقد أحسن إليها ، وأنزلها في الشرف الأعلى وإذا كان بهذه الحال فهو لا محالة يفعل سائر الخيرات » .

— ٥ —

والسعادة عند ابن مسكويه هي الخير التام في نفسه ، وهو متأثر في نظرته هذه بآراء فلاسفة الإغريق . على أن السعادة عنده ليست

فى المتع الحسية ، التى لا يطلبها إلا الرعاع والعامة وطلاب التجارة والكسب حتى فى العبادات ؛ بل إن السعادة عنده هى فى أمر واحد هو الحكمة التى يستحق من يحوزه أن يسمى حكيما وفيلسوفا ؛ وأن ينال بذلك السعادة الكاملة .

— ٦ —

ومع ذلك كله فقد كان ابن مسكويه اجتماعيا ، عرف لجسمه حقه ، ولنفسه حقها ، ولمجتمعه حقا ، فدعا الإنسان إلى أن ينيل جسمه ما به حياته وما يتفق مع المروءة ، وأن يكمل نفسه العاقلة بالفضائل الخلقية والفضيلة الفلسفية . والانسان عنده «مدنى بالطبع» وقد نظر أبوعلى إلى الذين يعيشون عالة على الناس نظرة سخرية واستخفاف .

وهكذا كان ابن مسكويه عمليا فى فلسفته ، يبحث فى الفضيلة ويبينها وفى السعادة ويحددها ، ثم يتبع هذا وذاك برسم الخطة التى تؤدى للظفر بهما . ولم يكن هذا الإمام الكبير متعصبا لرأى ، ولا منحازا مع عصبيته ، فقد أخذ : أصول مذهبه الأخلاق من الإسلام الكريم ، ومع ذلك فقد استفاد من الثقافة الاغريقية والفارسية الكثير .

رحمه الله ، فقد أسدى إلى الإسلام والمسلمين خيرا كثيرا ، وترك لشباب العرب تراثا خالدا ، يهتدون به فى دياجى الأحداث وظلمات الخطوب .

الأمة العربية

فى معركة تحقيق الذات

— ١ —

محمد المبارك صاحب : فن القصص فى كتاب البخلاء للجاحظ ، ورسالة فى عبقرية اللغة العربية ، ونظرة الإسلام العامة فى الوجود وأثرها فى الحضارة ، ومن منهل الأدب الخالد ، وفقه اللغة . . هو صاحب هذا الكتاب الجديد البكر : « الأمة العربية فى معركة تحقيق الذات » . .

وهذا السفر النفيس يحمل طابع مؤلفه العقلى والإنسانى ، ويمثل رسالته ودعوته ، وفهمه لمقومات القومية العربية وأصولها ، والعناصر الخالدة من تراث الأمة العربية وثقافتها ، ومن الرسالة الإنسانية التى ظهرت على يد محمد بن عبد الله وآثارها الجليلة فى الحياة والإنسانية ، وفى تحرر العرب ووحدتهم وانطلاقتهم الكبرى عبر التاريخ والأجيال والثقافات .

إنه موسوعة جليلة لابد من أن يقرأها شبابنا ليستعيدوا إيمانهم بأنفسهم وقوميتهم وتراثهم ، وليفهموا الأصول الفكرية لحياتنا وتراثنا وأمجادنا ، وليستطيعوا أن يوافقوا بين حضارة العرب المثالية الإنسانية وبين حضارات الغرب المادية الآلية .

ويبدو إيمان المؤلف واضحا كل الوضوح فى الكتاب بالعرب الذين يخوضون بعد معارك التحرر المادى والمعنوى معركة إثبات الذات ، ويستعدون لبناء الحضارة الإنسانية بما لهم من سابقة وتراث وقيم خالدة . . « والأمة العربية – كما يقول المؤلف – بموقعها بين القارات الثلاث من العالم ، وبموقع ثقافتها الإنسانية بين العالم الغربى المادى ، سواء الرأسمالى والاشتراكى ، والعالم الشرقى الوثنى ، والروحانى الخيالى ، وبموقعها القيادى من العالم الإسلامى . . تستطيع أن تقوم فى العالم بدور المنقذ ، وأن تكون رائدة الحضارة الإنسانية المقبلة وطليعتها(١) » .

وفى صدر الكتاب يحدثنا المؤلف فى بحثه القيم « أزمة الحضارة والأمة المنقذة » فيقول : إن العالم حيث بلغ اليوم فى مسيره ؛ والحضارة حيث هى فى طريقها فى هذه المرحلة من التاريخ ، ينتظران الأمة التى تقوم بالدور البطولى فى هذه العقدة من مسرحية التاريخ البشرى(٢) . . ويتابع حديثه فيقول : « إن العالم ينتظر أمة تقوم بدور البطل ، وإن الحضارة الحديثة التى تكونت فى الأصل من عنصر الثقافة اليونانية الرومانية بما فيها من فلسفة عقلية ، ووثنية دينية ، وإنسانية مغلقة ، ومن عنصر المسيحية بعد أن غشيت روحانيتها المثالية غواش من المادية القديمة ، ومن النفوس الأوربية التى لم تتفتح

---

(١) ص ٨ من الكتاب – طبع دمشق – مؤسسة المطبوعات العربية .
(٢) ص ١٣ المرجع .

إنسانيتها ، ومن الجانب المادى من الحضارة الإسلامية التى حملها العرب إلى الأندلس ، مفصولا عن الجانب العقيدى والخلق من هذه هذه الحضارة .

١

لقد انتهى الأمر بهذه الحضارة المادية ، إلى صناعة آلية كبرى ، ومستوى مرتفع للحياة المادية ومطالبها وثورات شعبية سياسية أطاحت بالنظم الفردية المطلقة ، وانتهت كذلك إلى مادية أوربية فى فلسفة الوجود والاعتقاد ، وإلى مادية فى أهداف الإنسان وقواعد سلوكه ، وإنكار لجميع القيم الخلقية الموروثة ، وضعف يشبه الموت للعواطف الإنسانية ، وإلى نظم للحكم وللمجتمع لا تقيم وزنا إلا لتحقيق الأهداف المادية ، من كثرة الإنتاج ، وتحسين مستوى العيش المادى على أسس جائرة أو عادلة ، وإلى استعمار لأمم أخرى .. إن هذه المرحلة واتجاهاتها المادية ، وليست الأزمات المستحرة المستحكمة سواء فى المجال الدولى أو الاقتصادى أو الأخلاقى ، ليست إلا انذارا تنبئ عن نقص هذه الحضارة أو فسادها أو انتهاء دورتها(١) . ثم يتابع الحديث قائلا : « لابد من شعب معين ، تعينه ظروفه ، ويساعده استعداده لحمل راية الحضارة فى مرحلة معينة من مراحل التاريخ . وإنى أعتقد بعد تفكير طويل أن العرب هم الأمة المرتقبة للقيام بهذا الدور العالمى ، وأن الحضارة الإنسانية المثالية المرتقبة تنبثق من

---

(١) ١٣ و ١٤ المرجع .

حضارتهم ، وتستمد عناصرها من تراثهم ، وأن يبدهم نتيجة ذلك مفتاح حل الأزمة العالمية ، وأنهم الطبيعة المنتظرة ، والرائد المرتقب لوثبات المستقبل الإنسانى(١) » .

— ٢ —

وينطوى الكتاب ـ الذى نناقشه ـ على مقدمة ، وقسمين :

فالقسم الأول :

بحوث ودراسات عميقة عن أزمة الحضارة والأمة المنقذة ، وعن القومية والإنسانية وعن مفاهيم القومية ، وعن العالم العربى والشرق الاسلامى المعاصرين منذ الدور الذى مثلته تركيا على صعيده ، حتى برحلة الصراع بين العرب والغرب ، إلى مرحلة نمو الشعور الذاتى ، وتحديد الذات ، إلى مرحلة : القومية العربية التى يتفق الجميع من بناة العروبة مسلمين ومسيحيين على إعتبار الاسلام تراثا قوميا لجميع العرب على إختلاف نحلهم ودياناتهم ، وينبوعا أساسيا بالنسبة للأمة العربية كما يقرر المؤلف ، ويؤكد ذلك فيقول : « فلم يعد الكلام عن الاسلام فى معرض البحث عن العرب وتاريخهم طائفية ، ولا الحديث عن القرآن كتاب العربية الخالد رجعية لقد مضى ذلك الزمان الذى كان فيه الوعى العربى نائما ، بل لقد أصبحت الرجعية اليوم فى أن لا تكون

---

(١) ص ١٥ من الكتاب .

بلغت من الوعى مرحلة تجعلك تدرك الصلة بين الأمة العربية والاسلام(١) .

ويتحدث المؤلف بعد ذلك عن الصلة بين العروبة والاسلام ، مؤكداً أن العرب المسيحيين كانوا ومازالوا جزءاً من أمتهم ، وأنهم وإن وصلتهم بدين ابن مريم صلوات الله عليه أسباب ، لهم بالاسلام كذلك وشيجة ، فهو تراثهم القومى ، من خلاله نظرت أمتهم إلى العالم ، وعلى أساسه سنت حضارة بل حضارات ، وهو مادة ثقافتهم ، وفى صفحات تاريخه مفاخر أمتهم(٢).

ويتحدث المؤلف فى القسم الأول كذلك عن : التيارات الفكرية المعاصرة فى البلاد العربية ، وفى هذا البحث يقرر المؤلف نتائج خطيرة جليلة :

أولا : تأكيد ما بين العرب من وحدة وانسجام .

ثانيا : تأكيد حقيقة أخرى لها أهميتها وهى أن جمهرة السكان فى صميم الشعوب العربية عرب أو مستعربين من قرون بعيدة قبل ظهور الإسلام وبعده .

ثالثا : تأكيد أن الثقافة العربية هى الثقافة الجامعة بين هؤلاء جميعه

---

(١) ص ٦٦ المرجع .
(٢) ص ٦٩ المرجع .

من العرب المسلمين والمسيحيين والأقليات القومية المسلمه أو المسيحيه . . مع تأثر الجميع بالثقافة الحديثة المنقولة أو المقتبسة عن الغرب .

رابعا : التيارات الفكرية فى العالم العربى إما أصيلة أو شعوبية.

خامسا : الأهداف المشتركة من الجميع تدور حول : تحرير البلاد العربية من الأجنبى ونفوذه ، وتوحيدها فى كيان واحد .

واعتبار الإسلام تراثا تاريخيا للأمة العربية ، وعنصرا أساسيا من عناصر تكوينها التاريخى ، يمكن أن يستوحى من تاريخه فى بناء حاضرنا . ثم حرية الأفراد فى معتقداتهم الدينية .

سادسا : الجمهرة الكبرى متفقة على أن تقوم دولة عربية واحدة يعيش فيها بأمن وحرية أبناء العروبة أو المنتمون إلى الثقافة العربية مسلمين ومسيحيين ، وترسى هذه الدولة مجتمعها على أسس مادية وروحية فى آن واحد ، وتراث الدينين المتضمن أعظم ما جاءت به الأديان من قيم روحية وخلقية هو الأساس الروحى لها ، والإسلام بغض النظر عن كونه دين القسم الأكبر من الشعب العربى ، هو تراث الأمة العربية القومى من روحه واتجاهاته العامة نستمد مثلها ومبادى تشريعها ، . ويستند فى ذلك إلى أقوال المفكرين المسيحيين ، ومن بينهم الشاعر القروى صاحب الأبيات الخالدة :

عش للعروبة هاتفا بحيانها وروامها
وامدد يمين الحب يا لبنانها لشآمها

أنظر إلى آثارها تنبئك عن أيامها
هذا التراث يمت معظمه إلى إسلامها

ومن بينهم كذلك الدكتور العربي المسيحي أديب نصور وسواه .

أما القسم الثاني من الكتاب وهو معظم الكتاب فيدور حول الأمة العربية ورسالتها ، والعناصر الخالدة من تراث الأمة العربية ، والعروبة والإسلام ، وأثر محمد في وحدة العرب وتوسعهم ، وحول البطولة العربية ومعركة الجزائر ، ومنطقة الثقافة العربية في العالم .

وهي بحوث مفصلة استقصائية مؤيدة بالشواهد والأدلة والنصوص والمراجع مما يجعل لها أهمية جليلة .

— ٣ —

ولا غنى لنا بعد ذلك من أن نقول إن هذا الكتاب القيم ، والسفر الثمين ، ذخيرة عربية مهمة للشباب العربي ، وللجيل المعاصر من أبناء العروبة . . وأنه جدير به أن يكون مرجعا للاساتذة ولطلاب الجامعات والدراسات العليا .

ويعد من الدراسات الجديدة الأصيلة التي نقدرها ونعتز بها ، وبمؤلفها الكبير إعتزازا من أعماق قلوبنا ومشاعرنا ، وللأمة العربية دائما الحرية والوحدة والمجد بإذن الله .

رسالة الأم فى وطننا

— ١ —

ماذا نقول عن الأم ، وقد مجدتها رسالات السماء ، وخلدت ذكريات كفاحها صفحات التاريخ ؛ وأعلت منزلتها فى الحياة كل النظم والتشريعات القديمة والحديثة على السواء .

إن كفاح الأمهات المصريات والعربيات كان دائما مضرب الأمثال طول عصور التاريخ ، كانت المرأة العربية تقوم بأعمال البطولة النادرة فى شتى المعارك والحروب التى خاضها العرب خلال الأجيال وكانت تجاهد لتأكيد سيادة الجنس العربى ، وتناضل فى سبيل المبادىء التى حمل المصريون والسوريون لواءها فى مختلف الحقب والقرون .

وكانت الأم المصرية والأم السورية تعيشان دائما فى ظروف متشابهة ، وجهاد مستمر لأعداء العرب والإسلام ، ففى حطين وفى عين جالوت وفى معركة المنصورة وفى معارك دمياط وغيرها وقفت المرأة المصرية والمرأة السورية تكافحان العدو المشترك ، وتدافعان عن كيان الوطن وحمى الآباء والأجداد ، وتنتصران للمبادىء والمثل الإنسانية الرفيعة التى حملتها لخير العالم والشعوب .

وفى الثورة السورية عام ١٩٢٥ وماتلاه من أعوام الجهاد ، وكذلك فى الثورة المصرية عام ١٩١٩ وما لحقه من أعوام النضال ،

كانت المرأة المصرية والسورية تقف دائما بجوار الرجل تنادى بحرية الوطن العربى واستقلاله وتحريره من الإستعمار الغربى .

ولا تزال بطولة الأم المصرية « أم صابر » فى معارك القنال عام ١٩٥١ تشهد لأمهاتنا المصريات بالمجد والتضحية والفداء .

— ٢ —

وجاءت الثورة المصرية واعترفت للأم بأياديها الجليلة على الوطن، وشرعت عيد الأم ليمجد فيه الشعب والحكومة الأم المكافحة المناضلة ، المدافعة عن كياننا وحقوقنا وشتى ذكريات تاريخنا الماضى والحاضر .

والأم تستحق كل ذلك ، فهى التى تكون الأسرة ، وهى التى يقع عليها عبء الكفاح الأكبر فى سبيل الحصول على لقمة العيش لها ولأولادها ، وتهيئة وسائل الحياة الشريفة والمستقبل المناسب لأبنائها . إن الرجل كثيرا مايجهل تبعاته حيال شريكته وأبنائه ، ومن ثم يقع العبء على كاهل الأم ، الأم التى تضحى وتضحى كثيرا بحياتها من أجل أكبادها . .

ونحن هنا ننادى بأن تؤازر الدولة الأم مؤازرة فعالة فى سبيل ضمان الحياة الطيبة لها ولصغارها .

ومن البدهى أنه يجب أن يكون هناك نظام كامل للتأمين الاجتماعى فى حالة الترمل والبطالة واليتم ، وأن يكون هناك جوائز سنوية فى

كل مدينة وقرية للأم المثالية التى تضرب أروع الأمثال فى كفاحها والمحافظة على شرفها وكرامتها ، فى أنحاء الجمهورية العربية المتحدة فى الشمال والجنوب .

وكذلك يجب معاونة الفتاة معاونة فعالة لكى تصبح أما ، تنجب للوطن الأشبال ، وتخلق له السواعد والأبطال ، بتقرير معونة مالية لكل فتاة محتاجة على أهبة الزواج وتكوين الأسرة .

والإكثار من المصانع اليدوية التى تنتج الصناعات الخفيفة التى تصلح الأم للعمل فيها ، وإنشاء دور الحضانة وتربية الأطفال ومجانية العلاج للأمهات والأطفال ، وإعطاء الأمهات حق العمل فى الوظائف التى تصلح لها ، وسوى ذلك من ضروب المعونة ، عمل ضرورى يجب أن تقوم به الدولة فى سبيل رفاهية الأسرة ، ودعم كيانها ، وتحقيق وسائل العيش الشريف لها .

— ٣ —

والطلاق وتعدد الزوجات من حق الرجل فى الإسلام ، ولا زلنا نؤمن بهذا ، بحرية الرجل فى طلاق زوجته وترك تقدير الظروف له ولمن يحتكم إليه الزوجان ، وبحريته كذلك فى تعدد الزوجات إلى أربع ، وهناك من ينادى بتغيير الطلاق بحيث لا يقع إلا بإذن القاضى ويمنع تعدد الزوجات إلا لضرورة ملحة يقدرها رجال التشريع .

والطلاق قد أباحته الكنيسة فى أوربا ، وتعدد الزوجات أصبح

ظاهرة فى الحياة الاوربية إن سرا وإن علنا ، ونستطيع أن نذهب مذهبا وسطا فى هذا الموضوع فننادى بحرية الرجل فى تعدد الزوجات إلى اثنين فقط وما زاد على ذلك لايكون إلا بإذن القاضى ، ونقرر للمرأة التى يطلقها زوجها معاشا دائما حتى تتزوج غيره إذا كانت فقيرة وفى غير حالة الخيانة الزوجية فتقرير هذا المعاش يجعل الرجل دائما يتروى فى الإقدام على الطلاق ويمتنع عن إيقاعه إلا لضرورة قصوى .

وبذلك نستطيع أن نطمئن الأم وأنصار المرأة ، وأن نكون مسايرين لروح ديننا ، ولتقاليدنا القومية التى سرنا عليها خلال الأجيال .

— ٤ —

وبجانب ذلك تقع على الأمهات مسئووليات كبيرة ، وعليهن واجبات كثيرة للبنين والأزواج .

فعلى الأم أن تخلص كل الإخلاص لزوجها ، وأن تعاونه المعاونة الفعالة فى كفاحه فى الحياة ، وأن تصرف جل وقتها فى زيادة دخل الأسرة ، وفى تربية الأولاد والسهر على توجيههم .

وإذا كانت الأمهات اليوم يعملن على زيادة أعباء الرجل المالية بما ينفقنه فى الكماليات ، وبسوء تصريفهن فى شئون البيت ، وباهتمامهن البعيد بزينتهن وبدور السينما ودور اللهو ، فإن هذه الروح يجب أن

تبطل ، وأن تعرف الأم واجباتها ومسئولياتها ، وأن تؤديها كاملة لزوجها وبيتها .

إن الأمهات الاوربيات يرسمن اللوحات الجميلة فى بيوتهن ويصنعن المفارش اللطيفة ، ويبعن كل ذلك لتحسين دخل الأسرة ، ويقمن بأنفسهن بأعمال الحياكة وغيرها تخفيفا للأعباء المالية على الزوج . فمتى تصل المرأة المصرية إلى هذا المضمار . . وهناك من الامهات من يغريهن الشيطان ، فيخن أزواجهن فى عرضهن ، وفى رأيي أن المرأة ليست مسئولة وحدها عن هذا الإنهيار الخلقى الكامل فى حياتنا الإجتماعية ، فالافلام والتمثيليات ودور اللهو والإذاعة والصحافه والكتاب كل هذه مسئولة مسئولية كاملة عن هذا الإنهيار ، وبجانب ذلك توجد أزمة الزواج بإضراب الشبان عن تكوين الأسرة هربا من مسئوليات الحياة الزوجية ، ونحن لابد لنا من علاج هذه الحالة علاجا حاسما ، بتفضيل المتزوجين فى وظائف الدولة على غيرهم ، وبتشجيع الموظفين ماديا وأدبيا على الزواج ، وبمنح الموظفين المتزوجين علاوات دائمة ، وتفضيلهم فى الترقية إلى الدرجات الأعلى ، وبزيادة حظهم فى المعاش على غير المتزوجين ، فإذا كان الموظف يمنح معاشا كاملا عندما يقضى فى الوظيفة خمسة وثلاثين عاما مثلا فيجب أن يمنح المتزوج هذا المعاش الكامل إذا قضى فى وظيفته خمسة وعشرين عاما فقط ، وهكذا ، من سوى ذلك ، من ضروب التشجيع على الزواج ومع ذلك فيجب فرض عقوبات قاسية على المستهترين والمستهترات وخاصة فى حالة الخيانة الزوجية .

— و —

وإنى أنادى بوجوب تأهيل الفتاة المصرية تأهيلا كاملا للحياة الزوجية ولتتحمل نصيبها من المسئولية فى تكوين الأسرة ، فيجب أن تقوم المدارس الإعدادية الصناعية للبنات ، وأن تنشأ جامعة نسوية كاملة بجميع فروعها وكلياتها ، بدلا من أن تنشىء جامعة جديدة مشتركة ، وكان من الافضل أن تكون جامعة أسيوط الجديدة مثلا خاصة بالفتيات اللواتى يرغبن فى التعليم الجامعى وحدهن فلا يباح التحاق الطلاب بها وتكون قاصرة على الطالبات .

وبجانب ذلك فعلى الازهر إنشاء معهد ابتدائى وثانوى للفتيات يتلقين فيه مبادىء الدين بجانب علوم الصحة والتربية والعلوم الحديثة ويقصد من ذلك ترقية المستوى الروحى بين فتياتنا ، تمهيداً لإعداد أم صالحة مثالية مؤمنة بربها ودينها ووطنها . بعد ماتعددت شكوى رجال الجامعة من فوضى الإختلاط فى التعليم الجامعى ومن فساد الحياة الجامعية بتأثير هذا الإختلاط .

وننادى هنا كما كنا ننادى دائما بوجوب منع الإختلاط فى التعليم فى كافة مراحله ، وليس هذا رجعية ، وإنما هو تنظيم للحياة الإجتماعية فى جمهوريتنا الجديدة على أسس قوية ودعائم متينة ، تتمشى مع روح النهضة والتحرر والوثبة القومية التى شاهدنا أفراحها وأعيادها فى فى هذه الايام بمناسبة ميلاد الجمهورية العربية المتحدة ؟

فهرست